روايات الهلال

فؤاد قنديل

المفتون



روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربى والعالمى تصدر عن مؤسسة دارالهلال

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شهيب

رئيس التحرير

مجدى الدقاق

المستشار الفنى

محمد أبو طالب

مدير التحرير

محمد رضوان

الإصدار الأول – يناير ١٩٤٩

العدد ٧١٢ – أبريل (نيسان) ٢٠٠٨م – ربيع آخر ١٤٢٩ هـ – برمودة ١٧٢٤ ق

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها مصريا داخل (ج.م.ع) تسدد مقدما نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٣٥ دولارا. أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا. باقى دول العالم ٦٠ دولارا.

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دارالهلال.

بريد الاشتراكات

Email : subscription_dep@yahoo.com

الإدارة

القاهرة:
١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).

المكاتبات:
ص.ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع.

تلكس:
Telex 92703 hilal u n

فاكس:
FAX: 3625469

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة – لبنان ٥٠٠٠ ليرة – الأردن ٢٠٠٠ فلس – الكويت ١.٢٥٠ فلسا – السعودية ١٢ ريالا – البحرين ١.٢ دينار – قطر ١٢ ريالا – الإمارات ١٢ درهما – سلطنة عمان ١.٢ ريالا – اليمن ٤٠٠ ريال – المغرب ٤٠ درهما – فلسطين ٣.٥ دولار – سويسرا ٤ فرنكات – السودان ٢.٥ جنيه

البريد الإلكترونى:

darhilal @ idsc. gov. eg



المفتون

سيرة روائية

فؤاد قنديل

دار الهلال



الخطوط للفنان : محمد العيسوى

الغلاف للفنان : عمرو الكفراوى

المتابعة : ياسر شعبان

لست المـــلاك ولا الرجيم وإنما

بعضي على أرضي وبعضي في السما

ويلٌ لنورٍ في السماء إذا ارتمى

أرضا وطـوبى للتــراب إذا سـما

شريفة فتحي

من أنا ؟

ومم خلقت ؟ ولماذا أتصور إمكانية أن يكون شخصى المتواضع رواية ؟

أنا طبعـا خلقت ـ مثل غيرى ـ من الطين أو من التراب والماء والنار والهواء، ولست أدرى أى العناصر أغلب ، ربما كان الماء .. فلماذا أنا رواية؟

هل لأنى عشت نحو ثلثى قرن (٢٣٠٠٠ يوم) واستهلكت جبلا عاليا من الأشياء ؟

أظننى التهمت خمس جواميس وملء ترعة صغيرة من السمك ، وألف دجاجة ومائتى ديك وعشرين ألف بيضة ، وعشرين عربة نقل من الخضار وضعفها من الفاكهة ، وشربت عدة صهاريج من الماء وأربعين ألف فنجان من القهوة والشاى ، ودخنت ثلاثين سيجارة، وتجرعت نحو دلوين من الخمر ، فقد حاولت أن أنحرف وفشلت ، واغتسلت بما يملأ العشرات من حمامات السباحة ، ولبست ما يعادل إنتاج مصنع كامل فى يوم ، وتكلمت بما يكفى لتشغيل إذاعة طوال عام كامل ، ونمت على الأسرة وتحتها وعلى الأرض وفوق الأفران ، وعلى الشجر وفى السيارات والقطارات والسفن والطائرات ، وتلقيت الكثير من الطعنات الجسدية والنفسية والسياسية والأدبية .

هل أنا رواية لأنى مشيت على قدمى عددا من الكيلو مترات يزيد على ضعف محيط العالم العربى جميعه من البحر المتوسط شمالا إلى اليمن والسودان وموريتانيا جنوبا ، ومن المغرب على المحيط الأطلسى إلى الكويت والإمارات وعمان على الخليج العربى ، بما فى ذلك العراق وسوريا ولبنان وفلسطين ؟

هل يمكن أن أكون رواية لأنى كتبت على أوراق تكفى لتغطية ميدان

التحرير ، وأني تعاملت مع قمم السلطة وعاشرت المشردين والسوقة ، وضُربت في عدة مظاهرات! خاصة أعوام ٦٨ ، ٧١ ، ١٩٧٢ ، وقبلها وأنا طفل عام ١٩٥٠؟؟ أم لأن لي قصصاً كثيرة لذيذة ودامية مع النساء ؟ .. هل استحققت أن أكون كذلك لازدحام حياتي بقصص النجاح والفشل ؟ أم بسبب ما تجمع لدي من معرفة هي خلاصة قراءة ما لا يقل عن عشرين ألف كتاب ؟ أم بسبب ذلك الكم الهائل من الأحلام التي دأبت على زيارتي فور أن يحط جسدي وتنغلق نوافذ الفكر وتنسحب الدنيا من حولي ؟

هل يمكن أن أكون رواية لمجرد أني زرت نحو عشرين دولة في الشرق والغرب ؟ أم لأني تعرضت للموت عدة مرات ، وتجرعت كؤوس الخوف والفزع شهورا طويلة ، وعشت أسير الأوهام لسنوات ؟

هل أستحق أن أكون رواية لمجرد أن عشرات الكلاب الضارية ، ضالة وغير ضالة، من الإنسان والحيوان ركضت ورائي مسافات طويلة ، ونهشت أطرافا من روحي وأحلامي وبعد لم تشبع ؟ أم لأني سقطت من فوق الأبنية عدة مرات ، وانقلبت بي خمس سيارات ، وتدحرجت من فوق أربع جبال وسرقت عشرات المرات وخدعني الأصدقاء بما لا يحصى ؟

هل يمكن أن أكون رواية لأني كتاب مفتوح ولا طاقة عندي لحشو أعماقي بالأسرار ، ولا احتمال لدي للأحقاد ، فالكون ملك الجميع ، وأنا عصفور .. مطالبي محدودة ، لا أسمح لها باجتياح دماغي وكرامتي وسلامي ؟ أم لأن ثقتي في الله بلا حدود ، وتعلقي دائما بوجهه المشرق المتد بين السماوات والأرض؟

أم لأني أعشق الحب والحرية والطبيعة والإنسانية وأقدس العمل والجمال والخيال ، إذ الدنيا دون كل ذلك غابة ومهزلة ومقبرة وجحر العفونة ومرتع للديدان ؟

هل استأهلت أن أكون رواية لأنني لازلت طفلا يزعجني الشر والعالم الطائش ، وأضطرب .. أحيانا - إذا طلعت عليّ امرأة جميلة في قميص

شفاف ، وأسيل إذا لمحت دمعة فى عين طفل أو أنثى حتى لو كانت عنزة ، وأفرح للربيع ولا أعبأ بالموت ؟ أم لأننى عشت حياتى أواجه الكذب والجبن والقبح والعهر والقهر والغدر والخمول والفهلوة والخيانة .. ولأنى ضد السكات إذا الظلم ساد ؟

قد يؤهلنى ما سبق لأصبح رواية ، لكننى أكثر من ذلك أو غير ذلك .. أنا هذا الكائن الذى يقبع فى الصفحات التالية ينتظر بشغف عيون تأملاتكم .. مشغولا إلى حد الرهبة بالسباق المحموم بين الصدق والفن . بين الحقيقة والجمال ، وأتصور أحيانا إنها جميعا تمتح من نبع واحد .

خبطة الوعى

أفقت من نومى العميق على لكزة مفاجئة . سمعت أخى الكبير يتساءل مستنكراً :

- كيف تنام وعبدالناصر يطلقون عليه الرصاص ؟!

هذا هو اليوم الذى يتعين أن أبدأ به ، لأنى استيقظت فيه من نومى الجسدى ومن شبه غيبوبة استمرت لنحو عشر سنوات منذ ولدت . كان ذلك فى أحد أيام أكتوبر عام ١٩٥٤ .

كانت سنى الطفولة مجرد زورق يسبح فوق مياه راكدة بلا ريح ، والعالم من حولى داخل شرنقة من الضباب والغمام والدخان .

لكزة عجيبة ، لازلت أتحرك وأصعد وأهبط وأرضى وأغضب وأنوب توقاً للمعرفة بتأثيرها ومن قوة تحريضها الأسطورية .. هل أنا وحدى من طالته مثل هذه اللكزة ، أم كل البشر ؟ وماذا نكون بدونها ؟

اللكزة الأولى كانت بالطبع عند هبوطى الاضطرارى طازجاً على أرض الحياة المدهشة.

لكزة ١٩٥٤ شقت عيونى ونقرت بقوة على زجاج قلبى وكل جوارحى . تسأل وتفتش ، فى محاولة شبقة ومحمومة لتمسك بغير المنظور قبل المنظور، لكزة فجرت ولعاً للمعرفة ومعانقة العالم لاتزال فورته تتنامى وتتأجج ، كالنار فى الموقد كلما ألقيت إليها بقطع الخشب علا لهيبها وأضاءت وبثت الدفء فيما حولها .

كنت تعلم أيها الصبى بشكل ضبابى أن عبدالناصر ، ذلك الشاب المصرى الذى يشبه الحربة المقدسة ، قد اقتحم الفضاء الإنسانى المتكلس وقاد ثورة مع إخوانه ضد الملك وقاموا بتوزيع الأرض على الفلاحين البؤساء

الذين لا يدرك أحوالهم بدقة شباب اليوم .. هؤلاء الفلاحون الذين تمت ملاحقتهم بقسوة الفقر والقهر والحرمان والتنكيل والحصر ، وتم مص دمائهم بشتى الوسائل . غير إنسانى بالمرة أن ننسى هذه الأوضاع ونحن فى أحضان البيتزا والكنتاكى والهوت دوج .

لم تكن تعلم أن هناك طبقات متراكبة من السلطة تبدأ من الخفير إلى شيخ الخفراء ثم العمدة وعساكر المركز وضباطه ، ثم مدراء الأمن وكافة أفراد السلطة الرسمية ، وهناك طبقات متراكبة من السلطة الرأسمالية بدءاً من الخولى وناظر العزبة وأولاد الإقطاعى وسائقه وخدامه ، والإقطاعى نفسه، وبعد أن كبرت أدركت ذلك وأصبح من السهل عليك أن تقول :

– ليس من حق أحد أن يتحدث عن الثورة إلا إذا كان يعرف جيد أحوال البلاد قبلها .

كان والدك قد تحدث بدهشة عن رفع الثورة أجور العمال لعشرة أضعاف ، من قرشين ونصف فى اليوم إلى خمسة وعشرين ، وعن توقيع اتفاقية الجلاء ، لكنك ظللت مغرماً بعبارة عبدالناصر الآسرة : «ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد» .. كما أنك لا تنسى المظاهرات التى كانت تبتلعك أمواجها قبل الثورة .

فى الفصل الدراسى تتناهى إلينا هتافات الطلبة الكبار يندون بالاستعمار وبالملك اللاهى . تقترب الحشود وتعلو الهتافات ، يهدد الطلبة ناظرنا فى مدرسة الشيخ لاشين كى يخرج التلاميذ للمشاركة فى المظاهرة ، قائلين : «اليوم حرام فيه العلم» .. لماذا كنت أفرح بهذه العبارة ؟ وكم فرحت بكل الهتافات حتى اليوم ، فهى حماسية ومسبوكة ولها أجنحة تحلق بها إلى أن تحط فى قلوب المشاركين فيها ، والذين يقبعون بعيداً عنها ، ولعلها تعد بصورة أو بأخرى من الأدب السياسى الشعبى ، ولازلت أدهش لأن بعضها كان يطالب بإنقاذ فلسطين من أيدى الصهاينة ، وها نحن بعد هذا الجبل العالى من السنين نهتف أحياناً بمثل ذلك .

عندما يرفض الناظر مؤكداً أن التعليم هو المقاومة الحقيقية وأنه أهم من

المظاهرات، ينهمر الحصى الذى يحطم بعض الزجاج ، فيُصدر الناظر أوامره بفتح البوابة لنخرج مُتدافعين مهللين ، ولنردد خلف الكبار الهتافات ضد المحتلين والنظام الفاسد ، نهتف بحماس زائد بعبارات لا نفهمها ، لكنى إذا لمحت الحاوى ، حوله الجماهير تتابع بشغف ألاعيبه ، أترك المظاهرة وأجرى إليه وأندس بين الرجال لأصبح فى المقدمة ، وأتأكد من أنه يأكل النار ويشرب الجاز ، وكم شغلتنى قدرته على وضع المنديل فى جيبه وإخراج الكتاكيت بدلاً منها .. لم أصدق أبداً ، وربما حتى وقت قريب إنها خفة يد ، فقد كنت متنبهاً جداً لحركة يده .

أفهمك فوزى الذى كان يستمع دائماً إلى الراديو أن أحد رجال جماعة الإخوان المسلمين هو الذى أطلق النار على عبد الناصر وهو يخطب بميدان المنشية بالإسكندرية .

دهشت لأن مصرياً يحاول قتل رجل ينفع البلاد .. ولم أكن قادراً فى ذلك الوقت على تصور إمكانية ارتفاع الخاص على العام ، فالفرد ليس أهم من الجماعة ، والجماعة ليست أهم من الوطن .. ولو فرضنا إنه ينوب عن جماعة دينية ، فهل هى ترقى لتمثل الدين ؟ .. ومن الأهم .. الدين أم الوطن؟ ولماذا تندلع المواجهة أحيانا بينهما ؟

كان لديك إحساس غامض بأن عبدالناصر أفضل من محمد نجيب الذى سمعت بعض خطبه أثناء ركوبه قطار الرحمة ، وهو يقول للناس :

– تحابوا وتعاونوا .. ومن معه بطانيتان ، فعليه أن يعطى لجاره بطانية ، ومن معه رغيف فليقتسمه مع أخيه .

لم ترق لى هذه الخطب الطيبة ، فقد أحالتنى إلى كلام الشحاذين والمساكين من عابرى السبيل ، الغريب أن معظم أفراد الشعب العاطفى كانوا يضعفون أمام هذه الكلمات التى تفتقر إلى أى حس ثورى أو رغبة عميقة فى التغيير ، وبصرف النظر عن قضية الديمقراطية التى أشعر أحيانا بالتقزز من سوء استخدامها هذه الأيام ، فإن ذهاب نجيب كان أمراً

ضرورياً ، وأتصور أنه كان عقبة على طريق الأهداف المأمولة لشعب تضور جوعاً وفقرا وحرمانا .

فعلت اللكزة فعلها فتحولت إلى آذان صاغية ، أتابع عبر الراديو الأحداث، وأسلم سمعى إلى باعة الصحف ، وعينى على العناوين .. كان علىّ أن أعرف ماذا جرى لعبدالناصر والرجل الذى أطلق النار وتم القبض عليه .

لا تنس الأستاذ ناجى مدرس الرسم الذى كنت تستكمل معلوماتك لديه ، وكان مغرماً بقراءة «الأهرام» وأحببتها مثله لأنك كنت تحبه فهو الذى يرعى موهبة الرسم لديك ويشحن روحك بالثقة .

بينما كنت أطالع الصحف بحثاً عن السياسة والأحداث التى تحمحم كالخيول الهائجة ، وألتمس الوهج البارق فى مواقف عبدالناصر لفتت نظرى كتابات من نوع آخر تتسم بالطلاوة والجمال والجاذبية ، ساعدنى الأستاذ ناجى على قراءة بعضها ..

تدريجياً - ومع الأيام - اجتذبتنى وإن لم تبعدنى عن الرسم ولعب الكرة.

شهد أكتوبر عام ١٩٥٤ أيضاً زيارة جدى لأمى . حسين الجمل ، قادماً من بسيون ومعه جدتى وخالى مصطفى الذى يفيض قوة ورجولة ، يتبعهم صبى يحمل على رأسه قفصاً كبيراً به ديوك ضخمة لها مناقير كبيرة حادة ولها أعراف قانية فى حجم الكف ، وذيول ملونة وعالية وأجسامها يغطيها الريش الزاهى ذو الألوان الفريدة .

تعودت جدتك أن تحمل لكم هذه الديوك مرتين فى العام .. نعم أنكر أن هذه الديوك الكبيرة كانت قبل سنوات تجرى ورائى وأنا صغير وتنقرنى فى رأسى وكتفى ، وكنت أهرب صارخاً بحثاً عن مخبأ يحمينى منها .. ديوك بلدية غريبة لم أر يوماً مثلها ، وظلت بخيالى تراودنى أطيافها حتى ظهرت بعد ذلك فى رواية «روح محبات» .

طرقات على الباب لا تتوقف إلا عندما أفتح واجده أمامي في جبته الكحلية وعلى رأسه عمامته البيضاء الشاهقة .. عمي الشيخ مصطفى إسماعيل المقرىء الشهير ، الذي يتهلل حـ[illegible] [illegible]ا يراني ، وقد تعود أن يقول :

– وحشتني أيها الغلام.

ويقول أحياناً :

– لماذا لا تكبر أيها الغلام ؟!

يخرج إليه أبي ، فيقول له الشيخ مصطفى

– لماذا لا تطعمون غلامي يا شيخنا ؟

ليس عمي ولكنه كان زميلا لأبي في المعهد الأحمدي بطنطا ، تعارفا وتصادقا رغم أن الشيخ كان يسبق أبي بعدة سنوات ، اعتاد أن يزورنا كلما مر ببنها .. قضى الشيخ معنا ليلة متوهجة ، تناوشتها أحاديث متضاربة حول الرصاص الذي أطلقه الإخوان على عبدالناصر ، قال الشيخ مصطفى:

– إن الإخوان يرون أن اتفاقية الجلاء التي وقعها عبدالناصر مع الإنجليز مخيبة للآمال ، وأنها تسمح بوجود قاعدة للإنجليز في القنال .. سأله أبي عن رأيه في ذلك .

قال الشيخ :

– الإخوان يحلمون وعبدالناصر حصل على ما كان صعباً الحصول عليه، والقاعدة الإنجليزية ستكون رمزية ، وتشرشل لا يريدها كبيرة لأنها مكلفة ، خاصة بعد هجمات الفدائيين المصريين . هذا إذا تجاهلنا مؤقتا أطماع الإخوان في الحكم ومقاومة عبدالناصر لذلك .

انتقل الحديث إلى موقف مجلس قيادة الثورة من الأزهر ، والعسكر الذين يديرون التعليم والصحة ، والدعوة المشتعلة لعودتهم إلى الثكنات وتسليم الحكم للمدنيين فأشرعت أذني وكل خلايا جسدي .. إنها اللكزة .

اللكزة التي فتحت لي بوابة العالم الذي اكتشفت أنه كبير جداً ومعقد .. كنت في جرة مغلقة ، كما كانت عيوني مغمضة ، وألقتني كلمات أخي وما تلاها وسط الشوارع والطبائع والحوادث والقسوة والحياة والموت والجمال والقبح والأمل والحب .. الأمل والحب .

ذكريني يا نفس فـآفتي الأولى النسيـان . ومن كـانت له مثل ذاكرتي ، فليوقن بالتلف .

عندما بلغت سن اليفاعة ، سألت والدك عن اسمك .. لم اختاره ؟

قال : كرهت فاروق منذ حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ورضوخه للإنجليز وقررت كناية فيه أن أسميك فؤاد مع إقراري بأنه أسوأ .

عائلة عجيبة

هل من حقنا أن نحكم على الأسلاف لأنهم اتخذوا قرارات ، وسلكوا سلوكاً ما فى ظروف معينة ؟ أظن أن التقييم واجب ، إلا أننا فى الأغلب نظلم الآباء ، إذ ننتزع ما أقدموا عليه من سياقه التاريخى والفكرى ودوافعه الملتبسة دون أن نراعى التركيبة النفسية ، أو نحسب حساباً لقدراتهم وقوى الضغط المختلفة التى تفرض شروطا جديدة تفضى إلى تغيير المسار بما يناقض الرغبات الحقيقية المتسقة مع الفكر والروح .

ماذا جرى لعائلة والدى المقيمة بقرية كفر سندنهور التابعة لمركز بنها ؟ .. كانت قبل جدين هى رأس القرية وأعلاها سلطة ومالا وعددا وعزوة ، فهناك الأرض الشاسعة والتجارة والعبيد والعمدية .. وتدريجيا ، تراجع هذا كله وتحلل ، وعندما ولدت كان المتبقى أقل القليل مع كثير من موجات البكاء على ما فات وبعض التناحر حول هذا المتاح ، ومحاولات كثيرة وطائشة للخروج من القرية ، وتعلقاً بالآمال الخابية ، وفى كل الأحوال ثمة غطرسة متعفنة بادت أسبابها.

جدى أحمد تناوشه أمراض الكلى والبروستاتة ، يقضى معظم الوقت فى الدار ، تتسلى يداه بحشو ورق البفرة بالدخان ، والانتقال من الظل إلى الشمس فى الشتاء والعكس فى الصيف ، ويتابع ما يجرى بغير اهتمام ، ولا يبقى له غير صوت جميل وعينين خضراوين صافيتين تفيضان حنانا ورقة ، وتكاد الدموع تطفر من عينيه إذا بلغه صهيل فرسته التى أخذها عمى .

جدتى «كعب الخير» فى المقابل شخصية مهيبة ، كلمتها نافذة على الجميع ، يتمثل فى تصرفاتها تقريبا كل ميراث الماضى ، ويتجلى على

ملامحها بقاياه .. كنت معها يوماً وهى تضرب الأرض بعصاها ، قادمة من جنينة التين .. لمحت رجلا يلبس عباءة فاخرة ويمتطى حماراً أشهب كبير الردفين ، عاليا ، يتقافز فى اعتزاز متصورا أنه فرس .. الخفير فى أعقابه يجرى .

نادته قائلة : ولد يا عبدالعزيز.

على صغرى أدركت أن هذا لا يصح فقد كان هذا الولد هو العمدة .. توقف الحمار فجأة ربما لمجرد سماعه صوت جدتى .. أسرع العمدة يهبط قائلا فى ذلة مفتعلة .

– أمرك يا خالة .

قالت بعد أن دنت منه :

– إنت قدها ولا مش قدها ؟

لم أفهم عمن تتحدث ، ولماذا هو ليس قدها .

قال العمدة .

– قدها يا خالة .. فيه إيه بس .

– لسه فيه عيال بينزلوا الأرض كل ليلة وينهبوها .

انطلق بحماس :

– مستحيل يا خالة .. هو حد يقدر يهوب ناحية أرضك وأنا موجود .

– ولو قدرْ وهوب .

– أقطع رقبته ورقبة اللى خلفوه .

أنجبت جدتى ثلاثة عشر ابنا وابنة .. مات منهم ثلاثة وتزوجت ثلاث نساء خرجن إلى حياتهن الجديدة ، وانتقل أحد الأعمام إلى طنطا وثان إلى القاهرة وبقى الآخرون فى الدار الكبيرة المكونة من طابقين عدا المضيفة والحظائر شبه الخالية . وكان لكل عم غرفة فسيحة له ولأسرته .

مع الفجر يصحو الجد والجدة يشعلان النار فى موقدين تندفس فيهما براريد الشاى والقهوة وتصطف الأكواب الصغيرة وفناجين البيشا المزركشة

من الخارج بخطوط متقاطعة زرقاء على الأرضية البيضاء . تتمشى فى أجواء الدار أنفاس النار والدفء وروائح احتراق أغصن التوت والكافور .

ينضم إلى الجلسة الدافئة كل من يصحو ، وأنا أول المستيقظين الحريصين على جلسة الكبار ، وشرب القهوة والاستدفاء بالنار وتأمل تقلباتها وقلبها الأحمر ، مستمعا إلى الكلام المتبادل ، بعضه فى سيرة الناس وبعضه توجيهات من الجدة حول أعمال يجب إنجازها فى اليوم نفسه، أو توبيخ منها لمن قصر وغفل ، بينما جدى يكافح كى يقول لوالدى وهو يبرم بقايا شارب رمادى هدته الأيام وأكلت بعض شعيراته.

– افتكر يا محمود تجيب لى حق معسل وعلبة حلاوة.

ويقول لوالدتى

– لو عملت يا أصلانه رز بلبن لفؤاد ، هاتى لى طبق وهو لسه سخن.

يتسم أعمامى كلهم تقريبا بالغلظة حتى أبى ، وإن كان فيه حنان يداريه حتى لا يحتسب ضعفا ، الوحيد الذى لا علاقة له بطبع الأسرة هو حسن أكبر أعمامى الذى يشفق على النملة فى الأرض ، وعلى القط الجائع والعصفور الباحث عن صغاره ، وينزعج جدا للطفل الباكى أو المرأة الشاكية فيسرع بكل ما يملك لتخفيف الآلام .. لذلك ينال أكثر التقريع من جدتى بسبب طيبته المثالية التى أعانته على تبديد الكثير مما تملك العائلة ، فكم من المحاصيل باعها ولم يحصل على ثمنها ! ، وكم دفع ثمن أشياء ليشتريها ولم يتسلمها ، وكم خدعه الآخرون ويكتفى بأن يطلب لهم المغفرة من الله حريصا على ألا يغضب ! .. لذلك فجدتى وأعمامى وعمتى العانس يتولون الغضب .

طفولتى لا تبدو على صفحة الذاكرة كلاً متكاملاً ، إنها شظايا تحركها شخصيات لا تنسى .. منها ما يتسم بالغرابة ومنها المعروف بالقوة الغاشمة والبطش وأغلبها كان حاد الذكاء ، والأغبياء قلة .. الأحداث كثيرة والتفاصيل أكثر .. على أن الغبار والضباب يحطان على كل شىء، ورغم

هذا فللأشياء طعوم لذيذة لازلت أحن إليها ، وأهفو ، وإن كان أكثرها لم يعد يلائمنى بحكم السن وكفاءة الأجهزة الحديثة التى تحاصرنا بشكل يقتل البراءة والفطرة .

لعل فى مقدمة هذه الأيام التى لا تصدأ «يوم الخبيز» .. يكاد يعتبر يوم عيد ، أو كيوم الحصد فى الحقول ، له فرحة خاصة وتأهب جميل وحالة من السعادة تشمل الجميع حتى الحيوانات .. الدفء يسرى منبعثاً من النار المتوهجة ، وحمحمتها وألسنتها التى تطل من فتحة الفرن السفلية كأنها لا تحتمل البقاء وتبغى الافلات ، وربما تروم الانتشار ومبارحة القمقم الجحيمى الضيق ، حريصة على ألا تتوقف رقصاتها المجنونة التى أطيل تأمل شجرتها المثيرة وهى تلتهم أقراص «الجله» وحطب القطن ، وما تيسر من شجر الجنينة المخلوع لشيخوختها .

فى الليلة السابقة أسهر مع أمى وزوجات أعمامى وبناتهم يجهزن العجين ، بينما بعضهن يغنين ، ولا تظهر جدتى إلا فى لحظتين .. لحظة وضع الدقيق فى الماجور مع الماء والملح وغيرها لتتحقق من دقة المقادير ، وعند تمام الاختمار .

تقوم واحدة بتقطيع العجين فى أقراص ، بعد أن تنثر طبقة رقيقة من الدقيق على الطبلية حتى لا يلتصق بها العجين ويسهل سحب القرص من فوقها ، ثم تقوم الثانية بطرح كل قرص على المطرحة وهزه عددا من المرات ، وفى كل مرة يرق ويتسع ، يرق ويكبر حتى يصبح فى حجم المطرحة ، وتتناوله الثالثة كى تلقى به فى الفرن .

النسوة جميعا حمر الخدود معفرات بذرات الدقيق ، مشمرات السواعد . يتحركن فى خفة ، ويطلقن التعليقات الساخرة والنكات ويضحكن فى سعادة، وعندما يتأهب الخبز الساخن للخروج ، تسبقه رائحته المميزة التى تدغدغ الأرواح والبطون . تنادى كل منهن زوجها وأولادها لالتقاط الدفعة الأولى منه .. الرغيف الأول له فرحة البكرى .

الخبز الطرى يطالعنا ببخار أمله وفرحه ولهفته للقاء أيدينا وأسناننا .. نسرع لنتناول معا أول رغيف ، كل من حضر يلتقط لقمة ، وتتوالى الأرغفة التى تترك لتبرد ، ثم يجىء دور «البتاو» وهو فطير بسيط من طبقة واحدة يسقى بالسمن أو الزبد ، وهو أصغر قليلا من الرغيف الفلاحى وأسمك ، وفيه لدونة ودسامة وطعامة مميزة .

أنت تنسى صينية البطاطس بعد انتهاء الخبيز وتنسى الأرز المعمر بوجهه الأحمر الغامق ، وقد يكون ثمة حظ لشىء من البطاطا وكيزان الذرة وغيرها ليكتمل يوم حافل من أجمل الأيام الريفية حتى لينافس أيام الأفراح التى يحييها الشعراء والمداحون .

ما هذا الجمال الذى يفوح من تلك الذكريات رغم أن معظم مفرداتها مغموسة فى ماجور الفقر وبرميل قلة الحيلة !! ما كل هذا الانتصار اللذيذ الذى لا يجعلنا ننام إلا مع الفجر إذا استمرت نحلتى تدور بعد أن توقفت نحلة غيرى !! ما السر فى البهجة التى تشملنا ونحن نجرى ونتسابق فى وحل الترع الذى يملأ قيعانها بعد انحسار الماء لاصطياد الكراكير الصغيرة من السمك ، وهى تحاول أن تغوص فيه هربا منا !!

لا تحاول أن تفصل نفسك عن عائلتك العجيبة كما تصفها ، وتبحث لك عن تميز بينها ، فأنت فرد منها ، ما يصدر عنها يصدر عنك ، ويلون مواقفك، أردت أم لم ترد ، حتى لو كان مختلفا على نحو ما ، فانكر واقعة الجلباب الجديد الذى أحرقته حتى آخر خيط ولا تدعى الحكمة .

كنت قد تجاوزت الثالثة عندما أطل العيد ببهجته وأفراحه ، وكعادتى استيقظت من النوم قبل أخوتى ، فسارعت أمى بنزع ملابسى وأقعدتنى فى الطشت وغمرتنى بالماء الدافىء .. ومضت تدلك بالليفة والصابون كل سنتمتر من جسمى الضئيل المرتعد ، حتى شعر رأسى وما بين أصابع قدمى وأنفى وما بين ساقى ، وعادت تدلك الجسد الصغير حتى احمر ، ولم تتوقف إلا بعد أن بدأت أتوجع من قسوة الليفة الخشنة ، وكان أخى الكبير فوزى قد

استيقظ ، وكان عليها أن تغسله غسلا جيدا مثلى حتى نكون لائقين بالعيد ، وكان فى العادة يأبى لأنه الأكبر ، ويمكن أن يستحم وحده ، لكن أمى تصر على القيام بالمهمة.

ألبستنى جلبابا جديدا ، فرحت به ، وأخذت أمر عليه بيدى فأحس للقماش الجديد طزاجة ووشوشة .. ألبستنى حذاء جديدا أسود ، له لمعة زائدة سرتنى ، وقبله شراب أبيض يقبض بمطاطه اللذيذ على ساقى .. مشطت شعرى وتأكدت من استقامة الفرق الذى يخط الرأس من الجانب الأيسر ، ولا يزال حتى الآن .. دفعتنى دفعة حنون وهى تقول : جدك فى القاعة. خليه يشوف اللبس الجديد والشياكة .

كان علىَّ أن أطمئن بنفسى على المسألة كلها وإنها بالفعل تدل على حالة ولد فرحان بالعيد ويرتدى الجديد .

انطلقت إلى حجرة نوم أمى فوجدتها مظلمة وأبى نائم ويتعذر علىَّ رؤية صورتى فى مرآة الدولاب الكبيرة . خرجت إلى وسط الدار حيث توجد مرآة عالية على أحد الجدران . حملت إليها كرسيا خفيف وصعدت عليه لأتامل جلبابى المخطط بالأزرق ، والجيب الصغير الذى طلبت أن يكون فوق قلبى .. بحثت عن السيالة التى يمكن أن أخبىء فيها العدية . انشغلت عن الجلابية لحظات بمتابعة الديوك الرومية التى كانت تتهادى فى سلاسة ، ولما اقتربت منها غضبت واحمرت أعرافها وبسطت أجنحتها حتى تصلبت ومضت تمشى فى غطرسة وهى تحكها بالأرض .. كنت أدهش لإحساسها الزائد بالعظمة ، عدت إلى جلبابى فشعرت بالعظمة أنا أيضا .

راقبتنى عمتى العانس ، وكانت تقلب الخبز على موقد النار ثم قالت.

– الله .. جلبيتك جميلة يا فؤاد .

فرحت وقلت : أه

– وجزمتك كمان.

انتفخت وقلت : أه

كنت مسرورا لأنى وجدت من يمتدح ملابسى ، ومن المؤكد أن الأولاد فى الشارع وأهاليهم سيدهشون.

سألتنى أمك اشترتها بكام؟

فقلت على الفور:

- بسرسين صاغ.

فوجئت بها تضحك ضحكا هستيريا حتى وقعت على ظهرها .. لم تنتبه إلا عندما لسعتها النار فى ساقها الممتدة فوقها .. اعتدلت لكنها واصلت الضحك .. لم تتوقف حتى بعد أن حملت الخبز إلى جدى وعمى حسن ، وسمعتها تعيد ترديد كلماتى وتضحك . كدت أنفجر من الغيظ . كيف تسخر منى ومن جلبابى ؟ . سمعتهم فى القاعة يضحكون .. تصاعد الغيظ . امتدت يداى إلى خلف رأسى فسحبت الجلباب بعزم ما بى وألقيت به فى النار .. وقفت أحدق فيه وهو يتلاشى قطعة قطعة ، والنار فرحة به تتعجل التهامه وتعلو وتجرجره ، وكلما ارتفعت النار واختفى الجلباب شعرت بالراحة ، وقبل أن تلتهم الأكمام جاءت عمتى وسألت عن سر النار العالية .. لمحت الكم ولمحتنى عاريا فسألتنى بفزع .

- رميت إيه فى النار ؟

قلت بفخر:

- الجلابية.

ضربت صدرها واصفر وجهها ثم اسود ، وقالت بحزن حقيقى :

- ليه يا بنى كده ؟

قلت فى شبه انتصار : تتنأورى علىَّ واسكت .

صرخت :

- الحقى يا أصلانة .. الحق يا حسن .

جاء عمى حسن بسرعة قبل أمى المشغولة بحمام أخى وقبل أن يفهم لقصة . أخذنى فى حضنه ولفنى بعباءته . أجلسنى أمام النار وجلس إلى

جانبي ، وقال :

- قل لي بقى يا عم إيه اللي جرى ؟

عندئذ انفرطت عمتي في الضحك الهستيري ونسيت الجلباب المحروق ، فأسرعت بخلع حذائي خطفا دون فك الرباط وألقيت كل فرده في ناحية ، واصلت عمتي ضحكها ، فانتفضت راميا عباءة عمي وأسرعت عاريا إلى الداخل فاصطدمت بأمي التي تلقفتني في حضنها مرعوبة تسأل عن الحكاية، ارتعد جسمي وصعبت عليَّ نفسي وسرعان ما سالت دموعي بغزارة ،

سمعت عمي حسن يقول لأمي بينما يتوجه إلى جدي :

- ابنك كرامته على طراطيف مناخيره .. لبسيه وهاتيه.

احتضنتني أمي بقوة فجفت دموعي .

روكسى

أنهى والدي دراسته الدينية في المعهد الأحمدي بطنطا، وكان قد تعرف بالشيخ مصطفى إسماعيل في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين كما تعرف على الشيخ محمود على البنا والشيخ عبدالعظيم زاهر وكانوا يسبقونه بعدة سنوات.. توطدت الصداقة حتى سمى أبي أحد أولاده باسم زاهر وقد لقى وجه ربه بعد عام كما لقيت قبله فوزية التي كانت تكبرني وجه ربها بعد أعوام قليلة.

بقى والدي عدة سنوات لدى أخيه محمد التاجر المقيم بطنطا إلى جوار مسجد الشيخة صباح، ولم يكن أبي ميالا العمل واعظاً فى المساجد أو قارئاً للقرآن، وقبل العمل مع عمى محمد في دكانه، وعندما حضرت أسرة أمي من بسيون لزيارة الشيخة واستشارة أحد الأطباء المشهورين، تعرف جدى حسين إلى عمي محمد، ورأى أمي فقرر تزويجها لوالدي.

فوجئت أمي بحياة الناس في القرية التي انتقلت إليها، لأن بسيون وإن كانت مدينة صغيرة إلا أنها تختلف، فضلاً عن أن عمل جدى فى إصلاح ماكينات الخياطة حقق له وضعاً اجتماعياً وعلمياً متبايناً، وتسببت مجموعة من الاختلافات في خلق جو غير صحي من العلاقات الأسرية.

كان هناك الفارق النسبي في مستوى المعيشة.

وكانت أمي جميلة بينما زوجات عمي وعماتي حظهن من الجمال قليل، كما تبدو أمي أكثر وعياً بحياة المدينة، ومعلوماتها عموماً أكثر تقدماً، خاصة

فى أنواع الطعام وأساليب التربية والمعاملة وأهمية التعليم وطرق الحوار وضرورة الاستماع إلى الراديو والتنزه، إضافة إلى خبرتها بالخياطة وماكيناتها، فقد كانت أثيرة لدى والدها محبة للاستطلاع، وتفضل مراقبته على أى لعب أو عمل، وليس من ذلك شيء بين مفردات الحية الريفية التى لا تعرف غير الحقل وأوامر الكبار وألوان محددة من الطعام والعمل واللهو، ومساحات محاصرة للحركة وآفاق تمنع من الابتكار.

رغم أن والدتى تميل إلى العمل فى صمت وتتميز بالصبر وتحسن الانصات، فقد شرعت التحرشات السرية، والسخرية من أفكارها وطرق طهوها وتسريحة شعرها وألوان ملابسها، بل ومن ميلها الدائم للنظافة، وتم توجيه الجدة للضغط على أمى لصنع أقراص «الجلة» من روث البهائم، ففعلت على مضض، واشتركت فى الخبز والحلب وتفريط الذرة.. حاولت ألا تكون عاصية وأن تتأقلم مع القواعد الراسخة فى حياة الأسرة .. لكنها رفضت بصلابة وشمم أن تملأ الجرار من النهر أو تغسل فيه الأوانى أو العمل فى الحقل.. وساندها جدى وعمى حسن، وتدريجياً أيدها الأعمام جميعاً، وكانت جدتى فى السر معجبة بها، لكنها لا تود أن يعصى أحد أمرها، وكذلك كانت عمتى التى كانت نيرانها المشتعلة قد خمدت قليلاً تجاه أمى بسبب ما تمنحه لها من هدايا تحملها إليها والدتها كلما زارتها، وكذلك الأدوات الخاصة بها كالأمشاط والروائح وبعض المواد المزيلة للعرق والشعر.

لم تخضع أمى أبداً لما لا ترضاه أو تقتنع به، وأحياناً ما تقدم عليه بوازع من المشاركة وحتى لا تتهم بالتعالى، وما كان أيسر من تدبيج التهم، ولم تقصر فى إجراء عملية الاندماج، وكانت يدها دائماً العليا وشخصيتها لافتة برغم صمتها وهدوءها وميلها للطاعة، وظلت وسط الأسرة وبين الريفيات كائناً غريباً ومدهشاً.. جميلاً ومحبوباً، وكانت سعادة بعضهن أن

يوجهن لها التحية فى الطريق وترد عليهن بمثلها وابتسامة.

بعد أن ولد فوزى عرض الشيخ مصطفى إسماعيل على والدى مصاحبته إلى القاهرة ليقرأ القرآن فى مساجدها أو يؤم المصلين. لكن أبى لم يكن يؤمن أن قراءة القرآن حرفة بل هواية وصلة بالله ورحلة روحية منقذة من الضلال والهم، واعترف بأن جدى دفع به إلى الدراسة الدينية وحفظ القرآن تجنباً للجهادية (الجندية) التى كانت فى الأغلب قتلاً للشاب وحرماناً لأسرته من جهوده أو رعايته، فلا مفر من عمله فى خدمة الانجليز فى السلم والحرب، وليس جهاده العسكرى لحماية تراب مصر والمصريين، وهكذا قبل أبى العمل سكرتيراً فى مدرسة الامريكان ببنها.

بعد أن ولدت فوزية طلبت المدرسة من أبى الانتقال إلى الإدارة فى روكسى حسب رغبة مستر بولتون، ورأى والدى أن تبقى أمى وولداها مع الأسرة فى كفر سندنهور، لكن أمى اعترفت له أنها كانت تدعو الله ليل نهار كى يخرجها من هذه القرية التى تكاد تميتها كمداً وهى تأبى الشكوى أو التصريح بما تعانى، وقد استجاب الله لهذا الدعاء بأفضل مما تمنت وألحت عليه أن ترافقه والولدان فوزى وفوزية ولن يكونا عبئاً عليه، بل عوناً وأنساً.

عاشت الأسرة الصغيرة فى شارع السلطان حسين، وكان آنذاك آخر العمران القاهرى، ولم تمر غير شهور قليلة حتى نشب صدام بين أبى ورئيسه اليهودى الذى كان يمارس بعض العبث فى ماليات الإدارة، كما كان يضيق بأبى الذى يقرأ القرآن وقت الراحة وحتى أثناء العمل وإن كان بصوت خفيض. فدس له مرات فى حين كان يداهنه ويطريه، وأبى واضح لا يجيد سبيل الدهاء، حتى فوجىء بالفصل، وأمى على وشك الوضع، فقد كنت أتأهب للخروج من قمقم الرحم إلى بحر الحياة.. من المجهول إلى المجهول.

عاد أبى قبل موعده، كما حكت لى أمى: يبحث عن ريقه فلا يجده. لا يعرف كيف يبدأ وماذا يقول، لكنه يبدو غارقاً فى الحيرة والاضطراب. عندما سألته أمى عن حاله لم يفصح وأنكر ورفض الطعام والحديث ثم ثار، وعندما مد يده إلى القلة، ووجدها شبه فارغة قذفها فى الحائط فتحطمت شظايا مثل قلب أمى.. كان أبى يختنق بسرعة كلما داهمه ظرف طارئ.

أمى متشبثة بالحياة الجديدة التى تاقت إليها، وكانت بالزواج تأمل فى العلو فوق حياتها البسيطة فى بسيون، فإذا بها تهبط إلى عيشة متواضعة فى القرية. أقل كثيراً من آمالها. والمرأة فى الأغلب لا تفتأ تنسج الأحلام، ولا تقبل التنازل عن سلمها الصاعد أبداً. دائماً هناك أحلام بعد أحلام، وآمال تتولد من آمال، وهناك فوق ثم فوق، وبعدهما فوق الفوق.

لم يحتمل أبى التصرف فى حمله فانطلق يحكى بعد أن استدرجته أمى بمعسول الكلام والصبر والتخفيف من وقع أى ملمة مادام الله معنا.

وقعت أمى - كما حدثتنى - فى بركان الحيرة والفزع من القاهرة وقد احتشدت فى سمائها غيوم الضيـ ع، ونهض أبى ليصلى كما اعتاد أن يفعل فى المواقف التى لا يملك لها رداً ولا تواتيه حيلة للخلاص، بينما أمى تجلس ساكنة تحدق فى وجه الظروف المتجهمة وأنيابها الحادة. تسألها: ماذا تريدين؟.. لماذا تتربصين؟.. ابحثى لك عن أناس غيرنا يحتملون حصدرك.

إلى أن نبتت الدموع ساخنة وتساقطت، وتمنت ألا يلومها زوجها كما اعتاد لأنها أثقلت وأولادها الزورق الصغير، لكنه لامها فعلاً كم توقعت وقاومت غضبه بالصمت والصبر والتفكير.

اكتفى بما فاض به من التأنيب واعترف بذنبه، مضى يضرب كفاً بكف، متسائلاً عن عقله كيف غاب حين وافقها على صحبته وترك العش الهادئ والآمن.

فجأة قالت له:

– لماذا لا تكون كأخيك محمد؟

– لا أفهم في التجارة.

– لابد أن تفهم.

– بالعافية؟

– نعم.. بالعافية.

– ..

– هل لديك حل آخر؟.. هل ستبحث عن عمل هنا في مصر؟

– ..

– اذهب إلى الشيخ مصطفى؟

– ..

– لماذا لا ترد؟

– نعود إلى البلد.. نعيش وسط أهلنا.

– نعود بالفشل، هذا لا يكون أبداً.

– أعود وليحدث ما يحدث.

– هل تصبح فلاحاً؟ هل لديك الأطيان أم ستعمل بالأجرة؟

– ماذا ستفعل إذن؟

– نفكر.

بقي لحظات يفكر ثم أقبل على صلاته فهي ملاذه، وبعد دقائق قليلة مرت كالسنة. وضعت أمي طرحتها على رأسها ولفت جسمها بالملاءة السوداء وتوجهت مباشرة إلى مطعم الحاج رزق بائع الفول والطعمية. طالبته أن يسعى لدى صاحب البيت كي يوافق على تأجير المحل الصغير المجاور له وقد مات صاحبه الأسطى كامل «الرفاء».

المحل لا تزيد مساحته عن مترين فى متر..

ضيق الصدر لا يملك القدرة على حوار طويل، كان والدى .. لم يكن يحب أن يرجو أحداً شيئاً مهما كان ضرورياً له. صعد رزق فى الحال إلى صاحب البيت وأقنعه بالموافقة على أن يكون الإيجار جنيهاً كاملاً فى الشهر.. باعت أمى خاتمها وسلمت أبى الفلوس ليملأه بالبقالة.

كانت المنطقة شبه موقف للجنود الذاهبين إلى معسكراتهم فى الهايكستب وما تلاه من الصحراء.. فوجىء أبى بأن البضاعة تنفد بسرعة والطلبات كثيرة، وشرعت أمى تفكر.. كيف يتوفر كل شىء فى الجحر الصغير؟.. أبى يعمل بلا توقف ولا ينام غير ساعات قليلة والمحل يكبر تدريجياً والخير يطرق بابنا بحماسة وإلحاح. النافذة الإلهية حين تفتح تجر فى إثرها عشرات النوافذ والبوابات، وإذا واتى الحظ باض الحمام على الوتد .

كان أبوك يحمل نقوده من حصيلة البيع آخر الليل فى كيس قماش كبير، يصب محتوياته فى حجر أمك، ويسهران معاً يحصيان القروش وأنصاف الفرنكات والشلنات والبرايز والريالات والجنيهات، ويقبلان الأيدى، وكل شهر تقريباً يخطف أبوك عدة ساعات إلى الكفر لتقبيل يدى والديه ويطمئنهما عليه وعلى الأولاد، ويطعمهما بيديه قطع البسبوسة التى يحبانها ويقدم لأخته ما أرسلته أمك إليها من الهدايا.

وبينما كان شبح هتلر يشغل كل العقول ويزور النائمين فى أحلامهم تحت هاجس إمكانية الهجوم على مصر وطرد الانجليز وتخليص البلاد من الكابوس الأسود الذى يحول دون أن نتطلع إلى أيام هنية. تسللت أنت إلى الحياة فى تلك الفترة الموارة بالمغامرة والاندفاع، المحتشدة بالآمال والأموال. وتظل هناك ولو عن بعد تنتصب أسباب التهديد والخطر.

الضربة القاصمة

هل فتح خروج أبى من الدار الكبيرة شهية أعمامي للخروج؟.. عاد أبى من إحدى زياراته للكفر، وقال إن عمي قنديل بنى بيتاً مستقلاً وانتقل إليه، وعمل عمي السيد فى الشرطة، وانتقل إلى اسطنها، وحسن الكبير كان قد سبق واستقل ومحمد غادر بعده إلى طنطا.

كعادتك نسيت عمك علي، بل إن جميعكم كنتم تنسونه، لقد كان كما قيل عنه طيب ً وحالماً وشارداً.. هل يمكنك ببسطة أن تنسى هذا العاشق الذى هام حب ً بفتاة أحبته تقيم ببنها إلى جوار مسجد أبو نوار، ولما علم أهلها أخفوها عنه، فمضى يبحث عنها وينتظر أياماً خارج بيتها لعلها تطل من نافذة أو تخرج من باب، وعندما يحس به أهلها ينقلونها إلى بلد آخر فيسافر إليه وينتظر، إلى أن أعيدت إلى قريتها فى قنا فما طاق الفراق ومضى فى أثرها.

نعم أتذكر جيداً ما سمعته عن تجواله خلف الحبيبة.

أذكر كيف أنه قرر مواجهة أهلها ووضع نهاية لمأساتهما، وطرق كل الأبواب التى توصله إليها وإلى رأس العائلة.. أنقذه الطيبون من عدة محاولات لقتله إلى أن أشفق عليه أحد شيوخهم واستقبله ليسمع منه، ثم طلب إليه أن يغادر القرية ويمهله شهراً يرتب فيه حلاً لمشكلته ووعده أن يبذل جهده فالقلوب معلقة بكف الرحمن وهو يثق أنه محب شريف، وعليه فى الوقت ذاته أن ينشغل بترتيب ظروفه المالية.

عاد عمي علي منشرح الصدر عازماً على تجهيز العش المأمول لحبيبة قلبه خارج الدار الكبيرة، مكتفياً ببيت صغير يبنيه على حدود الأرض المطلة على النهر.. عاد محمولاً على محفة الآمال متأملاً القمر الذى كان يصاحبه فى رحلته حتى أثناء النهار وفى الصحو والنوم وداخل القطار الذى احترق

عند بني سويف، ومات معظم ركابه، وأنقذ عمي علي وبقي في المستشفى أسبوعاً، ثم رحل بعد أن بكي طويلاً للنهاية غير المتوقعة.. وحكى بالدموع عن وعد الشيخ سليم.. رحل عمي.

رحل عمي ونحن في القاهرة.. رحل تاركاً الحسرة بقعة سوداء تتسع في قلب جدي وجدتي، وكان تأثير رحيله فاجعاً على جدي بالذات الذي انخرط بسرعة في طريق المرض، فقد كان علي أقرب الأبناء إليه، وإن كان يستشعر إنه لا يعتمد عليه بسبب رومانسيته الزائدة، وجريه الذي طال في إثر حبه دون أن يلتفت لأخبار الأرض والتجارة، ولا يعرف شيئاً عن أحوال العائلة ودروبها المضطربة.

كان علي يشبه كثيراً أباه.. يشتركان معاً في ذلك العرق الطيب الحنون والنادر في جيل العائلة الصخري. كان يعرف كيف يحب.. غرس الله له قلباً عاشقاً لكل المخلوقات، وخاصة البنات والقطط، وبرغم ما جرى فلا يحتسب على ضمن الفاشلين في الحب، وإن كان في عائلتنا حالة نادرة، لم يتح لها أن تتكرر.

بل تكررت، فأنت مثله وأندح.. لاحظ أنك تتنكر من جديد لجينات عائلتك العجيبة وتحسب إنك مختلف.. لقد أوشكت أن أرتاب في تسياتك فقد يكون محض ادعاء وصورة الإنسان عن نفسه غالباً غير دقيقة، والمرايا التي يحدق فيها بحثاً عن ذاته غير صافية، وشهادتها مجروحة. وسؤالي.. لماذا لم تكتب شيئاً عن عمك علي؟ ألا يستحق أم غلبتك خشية من ظهورك فيه، أم أنك مثل أعمامك وعماتك حاولتم التخلص من سيرته فقد يكون فيها ما يشين؟

لا أحد يصلح أن يكتب التاريخ، لأنه غير موجود تلك المحايد مائة في المائة.

عندما مرض جدي لم يجد عوناً كافياً من أولاده الذين تفرقوا في البلاد..

تعالت النداءات بأن جدي تداهمه الأيام الأخيرة، ولما زاره أبي، بكى الجد طالباً منه أن يعود، وتكرر الطلب، وأدرك أبي ذلك من قبضة يد جدي المعروقة على يده وهو يتأهب للانصراف، كما لاحقته دموع أبيه في كل أرض.

وصل أبي إلى بيتنا في روكسي مع الفجر، فقد ضل الطريق عدة مرات، وسار على قدميه عدة كيلو مترات، وعانى فكره من الحيرة، وعصفت به حالة أبيه وزلزلته اللحظة التاريخية التي تضربه بكل قسوة لكي يصدر قراراً حاسماً يؤكد ولاءه للرجل الكبير المستوحش والعاجز. كان مهتماً في كل لحظة بإيهام والده أن أبناءه جميعاً بخير ولن يخذلوه أبداً.

لطمت أمي خديها لأول مرة في حياتها. وانتفضت وانشالت وانحطت كأنها ترى شيطاناً أمامها.. فوجئت بأن أبي باع البضاعة وصفى كل شيء وسلم المحل، وعلينا الرحيل في اليوم التالي.. صرخت أمي غاضبة، مرعوبة ومتعجبة تستجير بالسماء.. بعد وقت عصيب سألته عن الأسباب التي دفعته لهذا القرار المجنون والمدمر.

- أبي مريض.
- نرسل له تكاليف العلاج.
- العناية أهم.
- نكلف من يعتني به.
- لا يعتني به إلا من كان من صلبه.
- إخوتك هناك.
- رحل معظمهم، ومن بقي لا يسأل.
- يامحمود أرجوك.
- ..

- أبوس إيدك.

- ..

حدثته عما تحقق وعن المستقبل والأولاد.. المشروعات الجديدة التى كانا يزمعان البدء فيها.. ذكرته بكلامها عن الحياة الكريمة والنظافة والتعليم.. المدينة تصعد والقرية تهبط.. أبداً.. رأسه وألف سيف ألا يبقى يوماً واحداً وألا يتخلى عن أبيه لحظة، وإذا رغبت فى البقاء فليس غير الطلاق. كان هذا أبى دائماً.

لم تكن أمى - كما قال والدى - فى هذا اليوم هى أمى.. كانت شخصاً آخر.. تلطم وتبكى وتدور فى الشقة وتولول وتنتقل من الباب إلى الشباك.

- أمك الصابرة الهادئة جداً المتماسكة جداً.. أصابها الجنون فى هذا اليوم.

قلت له بعد ذلك مائة مرة، إن ما فعلته أمى أقل مما يجب.. كدت أقول له، كان عليها أن تسقيك شايا بالمخدر وتقتلك.. لم نكن لنحزن. إن من قتل الأمل، قليل عليه القتل.

هذا سمت العائلة.. تندفع بلهفة نحو الأفكار الخاطئة، ثم تصر عليها وحتى إذا أيقنت بالصواب لا ترجع عنها ففى ذلك ضياع الكرامة والهوان وقد كان لهم فى القديم عز وسلطان، ذهب لأسباب مماثلة.

عدنا إلى القرية بالليل، حتى لا يرى أهلها فى النور عودتنا البائسة.. تسيل من عيون أمى دموع يختلط فيها الانكسار والخيبة والغضب. لم تكن لعدة أيام قادرة على التنفس. الفضاء خلا من الهواء.

البيت الكبير خال تقريباً من الناس والحياة والصخب.. السماء غائمة.. القرية ترتعد. الوجوه المعفرة بالأيام شاخت.. الجدران ساخت فى التربة الموحلة.. الأشجار مالت والظلال مصفرة.. الصمت شامل لولا نباح بعض

الكلاب التى تعانى من الفراغ والجوع. تحاول أمى جاهدة أن تتواءم من جديد فلا تعثر فى أعماقها على الحماس الكافى.. تحاول كى تربط عربتها بعربة الحياة .. حياة القرية وليست حياتها.. أبى لا يعمل.. ينفق الكثير على علاج جدى. وسرعان ما مرضت فوزية أيضاً ثم رحلت على عجل.

عرفت طريقى إلى الحقول أنا وأخى، هو يتسلق الأشجار ويقفز بين الأغصان ثم يطير إلى الأرض أو يسقط فى الترعة، وأنا أعدو خلف الفراشات وأرقب حركة النمل والطيور وأحمل الزهور لجدى ووالدتى. انضم أخى إلى الأولاد الذين يجمعون دودة القطن من فوق اللطع دون علم الأسرة، وكان أغلب الناس يدهشون له، إذ كيف يخوض الولد الجميل ذو العيون الخضر والوجه الأحمر فى طين الحقول مع الأولاد الحفاة والعرايا من أجل ملاليم. فضلاً عن أن أحداً من عائلتنا لم يفعل مطلقاً.

غضب أبى وطارده أياماً لكن فوزى كان يجيد الهروب والاختباء، وبدا أبى غاضباً من نفسه وليس من فوزى، فقد نفدت كل الأموال، وجدى لا يتحسن.. تعب القلب وأنهك ثم تفاقمت متاعب الكلى والبروستاتا وتليف الكبد، لكن العمر لا يزال فيه بقية، وأبى يرفض أن يبحث عن عمل حتى لا يغيب عنه لحظة فقد يفارق، وفجأة وافق على عرض الشيخ مصطفى إسماعيل بالعمل لدى البدراوى عاشور فى مزارعه الشاسعة بشمال الدلتا.

توالت الأحداث التى لا أذكر منها فى تلك الفترة غير سهرى حتى الفجر مع فتحى الشاعر نستمع للسيرة الهلالية التى خلبت لبى، كما لا أنسى معركتى مع أطول رجل فى القرية محمود نجم. كان طويلاً جداً يلتقط ما يشاء من أشجار التوت والجميز والجوافة وهو واقف على الأرض، إذا قدم من بعيد تحسبه رجلاً يحمل رجلاً.. فى مرة اصطدمت به وأنا أجرى، فقال

لي: حاسب ياولد.

قلت له: لا تقل ياولد.

قال: أنت ولد ونص ولد.

التقطت طوبة صغيرة وصوبتها نحوه فأخذت طاقيته وطارت، بانت رأسه التي تشبه قمع السكر أو على الأقل كالبيضة.. ركض خلفي ولم يلحقني.. غرق في الضحك كل من شاهده. انطلق فوزي الذي رآني إلى حقل نجم وصعد إلى الشجرة التي يعلق فيها القلة وشرب كل ما فيها من ماء بارد وبال فيها، ثم جرى وجرى وعاد يبول فيها انتقاماً لي.

أكل الندم والدي لأنه ترك جدي، فبعد شهرين فقط من سفره إلى بلقاس مات جدي، وبدا كأن الأقدار تلعب لعبة مجهولة مع والدي ومعنا.. مواقف عجيبة ومتضاربة.. الآمال كأنها تتلهف على التحطم فوق صخور المفاجآت الصادمة.. لا شيء يمضي على النحو المرغوب وليس ثمة خط يمتد على استقامته كما يهوى راسمه، واللحن الجميل سرعان ما تضيع نغماته من العود المتيم.

دعانا أبي إلى الانتقال للعيش معه في بلقاس. فرحنا مع أمي بالرحلة الجديدة، خامرها إحساس غامض بأن القدر سيعوضها عن خسارة القاهرة.. نمنا في القطار وظلت مستيقظة تحاول أن تتخيل شكل الأيام المقبلة. وتمنت أن تستطيع التكيف مع طباع أبي أو معرفة ردود أفعاله قبل أن تنطلق بوقت كاف، لأنها إذا انطلقت كالسهم من القوس فلا ترتد ولا يمكن التأثير على مسارها.

الأسباب التي تدفعه للقرارات المفاجئة لم تنته بوفاة الجد، فهناك الجدة والعمة وبقايا الأرض، وربما آخرون يجد لهم عليه حقوقاً تستحق الوفاء، وأسرته الصغيرة أول من يدفع.

استقبلتنا بلقاس استقبالاً لا ينسى.. أغرقتنا بالمطر المتدفق بغزارة كأن السماء خزانات مفتوحة لا تصب إلا علينا.. ظلت الأمطار تغمرنا دون توقف نحو ثلاثة أشهر.. كنا نعيش فى الدور الثانى بإحدى البنايات والسقف من فوقنا أشبه بالغربال.

نضع تحت كل ثقب حلة أو طشتا أو دلواً أو كسرولة، حتى على السرير.. لا توجد مساحة غير مخترقة بالمطر تكفى لشخص واحد كى يتمدد أو يتقوقع لينام.. دعتنا والدتى أن ننام تحت السرير.

كانت الطرقات بحاراً والمياه تصل إلى بطن الرجل وغالباً حتى ركبتيه..

ظهرت مهن جديدة للرجال من وحى الظروف، منها حمل الأطفال من مكان إلى مكان ونقل الناس على عربات يجرونها بأنفسهم كالركشا فى الصين، ولا شمس هناك ولا سماء صافية، ليس غير سحب ملبدة دائماً سوداء مثقلة بالماء.

جلست والدتى تتأمل الأحوال والطرق المسدودة والآمال الموءودة والحيرة والفشل، وأبى يعود مهدوداً لا يصلح حتى للكلام.. طلبت منه يوماً أن نعود، فوافق وقد أشفق علينا، لكنها فاجأته، بأنها لن تعود إلى القرية، فسوف تسكن مدينة بنها التى تبعد خمسة كيلو مترات عن القرية.. مدينة صغيرة ولكنها مناسبة لدخول الأولاد المدارس ولبدء حياة تخلو من الطين والظلام والحشرات.

دخلت المدرسة خريف عام ١٩٥٠. ورفضت المدارس قبول فوزى الذى يكبرنى بأربع سنوات فالتحق بمحل خياط، وأنهى أبى عمله بمزارع البدراوى عاشور حتى لا يترك أسرته وحدها ، وسعى الشيخ مصطفى لدى وكيل وزارة الصحة، فوافق على إلحاقه مسئولاً عن التوريدات فى مستشفى بنها العام.

طائرتي الورقية

كانت الخمسينيات فيما يبدو حقلا خصبا ونضرا نبتت فيه بعض شجيراتي الواعدة، تفتحت بوابات روحي للوجود، واستيقظ الوعي أو لعله ولد تماما.. لعبت الكرة وبزغ نجمي كمراوغ، وكنت محط النزاع بين فرق الشوارع والأحياء فكل منها تريد أن تجتذبني إليها واستهواني الرسم، خاصة الشخصيات، فرسمت عبد الناصر وأمي وأبي وطه حسين والحكيم وسعد زغلول ومصطفى كامل الذي سحرني بشخصيته ووطنيته، كما رسمت عبد الله النديم وبعد ذلك بسنوات رسمت كريمة في عدة صور. ولم يمنع الرسم والكرة متابعتي للأحداث السياسية من خروج الانجليز وإعلان الجمهورية إلى صفقة الأسلحة الروسية عن طريق التشيك وغضب أمريكا، إلى التفكير في بناء السد العالي ومؤتمر باندونج وتأميم القناة الذي كان بحق ضربة كبرى من معلم رفعت رؤوس عدة مليارات من البشر في كل أنحاء العالم يعانون من القهر والتخلف والحصار والمذلة. ثم كانت السقطة الأوروبية الكبيرة بعدوانها الثلاثي على مصر في ١٩٥٦ إلى أن انحسرت الأمواج الهائجة، واستقر زورق البلاد على مياه هادئة وارتفعت العيون لتواجه الشمس.

ما أروع تلك الأيام، وما أتعسه من ينظر إليها بلا مبالاة ولا يحفل بالمجد الحقيقي الذي نسجته أيدي المخلصين الذين كانوا ينهلون من نبع الكرامة.. النبع الحقيقي للحياة!!

أحببت ناجي مدرس الرسم وأحبني وشجعني.. وسيم ورقيق وحالم، بسببه حصلت مدرستة بنها الإعدادية القديمة على عشرات الجوائز. طلب مني مرة أن أحمل خطابا إلى مدرسة في مدرسة أخرى.. حملته إليها. بعد

يومين سلمني خطابا، فأسرعت سعيدا بتوصيله. سألني:

- لماذا لم تسألني لم اخترتك لتوصيل خطاباتي إلى أبلة صفية؟

قلت: عندما أكون راضيا لا أسأل.

كان الرجل حييا وكذلك كانت، اكتشفت إنها تسكن بعد بيتنا بعدة بيوت، لا أنسى عيونها السود الواسعة وأصابعها النحيلة، وفمها الصغير وأنفها الذي لم يكن أكثر من ثقبين فوقهما بندقة بيضاء.

في إحدى المرات سلمتني كيسا، سألتها بعيني: للأستاذ؟ هزت رأسها مؤكدة.. حملته إليه في حجرته، ولما فتحه تهلل، لم أكن أتصور أنه يفرح كل هذا الفرح بسبب كوفية حمراء لها شراشيب سوداء، كنت سعيدا لأني أرعى علاقة رائعة تجمع بينهما.

لكنك لم تذكر شيئا عن الكوفية التي غزلتها لك بيديها من الصوف الأصفر، بشراشيب بنية، ولفتها بنفسها على رقبتك ثم ضمتك إليها، وقبلتك على خدك الأيمن في امتنان.

كان الأستاذ ناجي أول حبة في عنقود كبير من الأساتذة المخلصين.. كان لهم دور كبير في تشجيعي ورعايتي وتوجيهي.. حفروا رغم بساطتهم وتواضعهم أسماءهم في قلبي، ولهم متحف مضيء في روحي يجمعهم في مشهد رائع من الحب والحنان، لا أفتأ أدلف إلى ردهة هذا المتحف لأحيي الأساتذة أصحاب الفضل وأنحني لهم.

عندما حاولت الاشتراك في المقاومة الشعبية مثل أخي في أكتوبر ١٩٥٦ والتدريب على السلاح لرد المعتدين، رفض الصول شوقي صديق والدي وقال: إن البندقية «اللي انفيلد» يا أبو محمود في مثل حجمك ووزنك، وسنك لا تزال صغيرة، مع ذلك تسللت إلى معسكرات التدريب في الجانب الآخر من الرياح التوفيقي في عزبة سميت بعد ذلك الحرس الوطني.. تدربت مع المتدربين، لكنهم لم يسلموني سلاحا وانضممت إلى المقاومة السلمية، وأغلب عملها التوعية وإطفاء الأنوار والإبلاغ عن أي غارات، طلب عم عبد الرحمن الخياط من أبي مساعدته لاستعادة فوزي من التدريب لأن الدكان يحتاج

بشدة إليه، وكنا كذلك.

الشعب كله يتحرك فى حماسة وإخلاص لصد من يقترب من مشروعاته الجديدة وتطلعه نحو المستقبل.. استيقظ الشعب مثلى على نداءات عبد الناصر الذى كان عملاقا يمشى بين السحاب، المصريون منتشون بالرأس المرفوعة، والشمم الذى لم يعرفوه لقرون طويلة، فقد كانت كل الرؤوس فى التراب وتحت الأقدام.

أسرعت إلى الأستاذ ناجى أطلب منه أن يوفر لى الأدوات والخامات فسوف أرسم على سور المدرسة كله من الخارج مشاهد تاريخية مصرية، تنتهى باحتشاد المصريين لمقاومة الأعداء، وافق سعيدا واقترح ألا أكون وحدى، فاخترت لنفسى «الباكية» الأخيرة.. باكية المقاومة المعاصرة والتطلع إلى الشمس وانتشرت بعد ذلك فكرة رسم أسوار المدارس بيد طلابها.

تفتحت مع الرسم رغبتى فى القراءة.. أقبلت على مكتبة المدرسة ومكتبة المحافظة، أطالع القصص والأشعار وسير حياة العظماء، التهمت سلسة أرسين لوبين وروكامبول، وأجاثا كريستى، وروايات الجيب وروايات جورجى زيدان وقصص للجميع ومعظم أعمال طه حسين وتوفيق الحكيم والمنفلوطى وتيمور وسلامة موسى.. العقاد والمازنى.. قرأت تولستوى وسباتينى والكسندر ديماس وديستوفسكى وجوجول وتورجنيف وتشيكوف..

سحرنى طاغور والشابى وهاشم الرفاعى وبيرم، بعد سنوات قليلة احتل شوقى الصدارة ولحق به شكسبير ولامرتين وبلزاك وزولا وديكنز، وما أن قرأت الأساطير الإغريقية حتى أسرعت إلى التراث اليونانى والرومانى، أنهل من هوميروس وسوفوكليس وأريستوفانيس وأيسخيلوس، ثم قرأت مارك توين وصلاح جاهين وعبد الله النديم وعبد العزيز البشرى، ودانتى وإدجار الان بو وشتاينبك وفوكنر وأقر القرآن والإنجيل والعهد القديم.

كنت أقرأ كتابا كل يوم على الأقل وأحيانا كتابين، فى حجم أحلام شهر زاد لطه والبستانى لطاغور.. استدرجنى هذا العالم الساحر بقوة وحنان.. مغامرات هائلة تتوالى فى كشف أعماقها لى.. خدامها الطيبون يمدون

أيديهم إلىّ ويصطحبونني فى رعو، والموسيقى الأسرة تتسلل مع كل كلمة، رائحة الزهور التى لا أعرف مصدرها تحوم حولى وتمسح على بدنى.. أيقنت أن هذا اللون من الكتابة هو العبقرية الحقيقية التى تستحق الخلود.

أيقنت أننى لا أملك الابتعاد لحظة عن هذا العالم، وإذا حدث هذا يوما سافقد الهواء الذى أتنفسه والماء الذى يروينى والغذاء الذى يطعم قلبى ويبقينى حيا.

أيقنت أيضا أننى فيما يبدو لم أقصد اختيار هذا العالم وإنما هو الذى اختارنى بطريقته، كما تلهمك الفتاة الجميلة التى تريدك أن تتقدم منها وتعلن أنك الذى تريدها، إنها الوحى الذى يتفجر بداخلك لتكتشف فجأة أنك فى الحقيقة ومن زمن تعشق الجمال وقد آن أن تعانقه وتفنى فيه، لا أن تدنو منه وتتعرف عليه.

أيقنت سعيدا وشاكرا لله أنى التقطت الخيط الطويل الذى أدير به وأتابع بابتهاج انطلاق طائرتى الورقية الملونة فى سماوات شاسعة ومحبة.

لم تذكر أن البداية كانت مع موضوعات الإنشاء التى بهرت الأستاذ «قنة» مدرس اللغة العربية، ودعته ليقترح أن تتولى الإذاعة المدرسية، وشجعك على المزيد من القراءة، بل كان يعطيك بعض الهدايا من الكتب والنقود كلما قرأت كتابا مهما، على أن تطرح ما فيه على الطلاب.

شرح صدرى حصولى على بعض الجوائز المدرسية.. ومع أول سنة فى المرحلة الثانوية كنت قد مللت الكثير من الكتب المكدسة فى المكتبات العامة ببنها وسمعت عن سور الأزبكية بالقاهرة، فأسرعت أجمع مصروفى اليومى وفى صباح الجمعة أستقل القطار إلى القاهرة، وعادة ما اختبىء فى دورة المياه أو تحت الكراسى، أو أركب قطارا مبكرا يقف بمحطات كثيرة حتى أستطيع الهروب من المحصل، وأحتفظ بالقروش لأحمل بها ما أشاء من الكتب التى تكون زادى طوال الأسبوع موزعة على أيامه، ومع يوم الخميس تكون قد انتهت لتبدأ رحلة جديدة مع صباح الجمعة التالى.

نساء فكرى

النساء.. النساء.. بدا غرامه بهن واضحا منذ أول يوم، ومعظم المترددين نساء.. ينشرح صدره إذا كن من الصبايا اللاتى تختلط على وجوههن البراءة بالدلال.. السذاجة بالإثارة.

يسألهن عما يعانين، ويكتب مسمى الحالة.. مغص كلوى.. قولون.. خلع بالكتف، آلام فى الظهر، أمراض نسا. بواسير. كبد. أنف، وأذن.

فى البداية كان علىّ أن أتأمل الأحوال وأسلوب العمل ومراحله. لكن فكرى شغلنى بطريقته الغريبة عن العمل، فاقبلت محاولا تحليل نظراته وسلوكه.. أصابعه لا تتوقف عن برم شاربه البنى الطويل المنتصب.. وهو مشغول طيلة الوقت بالاطمئنان على استقامته وسلامة السن المدبب كى تقف عليه عدة صقور. أدركت أنه يود استعراض رجولته، وعندما تقول له الشابة:

- فم المعدة.

يقول لها:

- فين بالظبط.

وإذا قالت: أمراض نسا.

يسألها:

- بتشتكى من إيه بالتحديد. أنا هنا الكل فى الكل. الدكتور يعتمد على كلامى، غيرى مش ح يدلك على العلاج.

عندئذ - وفى الأغلب - تنثنى الأنثى خجلا وتكبح ابتسامة وبعضهن تحتد معه بكلمة

أمراض نسا ويس.

وقد تكتفى أخريات بالنظر شذرا إليه.

رأى أبى أن خطى ليس جميلا، كخطه..

تمنى أن يصبح أفضل لأنه - فى ظنه - جزء من الشخصية، طلب منى أن أقضى الإجازة الصيفية فى المستشفى للمشاركة فى تحرير تذاكر المرضى فى العيادة الخارجية مع فكرى.

أذعنت لأمر والدى، ورغبة فى التعرف على عالم ثرى يحتشد بالمفاجآت والحوادث والغرائب، كنت أتمتع بفصول كاف يدفعنى إلى قبول المهمة بدلا من الذهاب ككل عام إلى القرية.

لم أكن أتصور أنى سألتقى بشخصية متخصصة فقط فى عالم المرأة، وخاصة خرائط جسدها حتى إنه كان يفيض علىّ بعلمه إذا خفت الرجل، فيحدثنى عن أنواع الصدور والمؤخرات والسيقان والشفاه والأرداف والعيون والأفخاذ، ودلالة كل تكوين على النفسية والطباع، وعلاقة ذلك بالجاذبية والكفاءة، وكلما لاحظ احمرار وجهى وانكماشى، قال

- أنا ارتحت لك يا فؤاد أفندى من أول دقيقة وعلشان كده باكشف لك معلومات لن تجدها فى الجامعة.. العلم ده أهم علم فى الحياة..

يأخذنى العجب من ذلك الشخص الذى أثق جدا أنه مجذوب.. لكننى كنت مجذوبا إليه.

في مرة قال لسيدة: أنا هنا الكل في الكل.

واستطرد متوجها إليّ

- مش كده يا فؤاد أفندى.

فوجئت، واضطربت، فماذا أقول؟.. هو طبعا ليس الكل في الكل.. وليس شيئا على الإطلاق، انحنيت أنظر في الورق وأحرك رأسي ويدى في حيرة، ودهشت لأنه قال لها:

- شفت؟

وعندما سألته بيني وبينه عن معنى أمراض نسا.

برم شاربه وقال

- ما تستعجلش يا أبو محمود ح تعرف كل حاجة.. خليك بس مع عمك نكرى وأنت تكسب.

تأتي أخرى لتشتكي من ظهرها.

- لازم بتستحمى كتير.

- أبدا يا خويا.

ويرى أن المساحة مازالت قابلة لمزيد من المعرفة.

- هو فيه ست مابتستحماش كتير!

- يعنى ح استحمى على المليان وعلى البطال.

- وبطال ليه؟

تتكسر مقاومة الست، وتنفجر الضحكة على شفتيها، فيحاول أن يواصل الضغط ليسمع كلاما مسليا، ثم يفاجأ بمن تصرخ فيه

- ما تخلصنا يا فكرى أفندى؛

لا يسأل فيها ويمضي بعدها محاولا الحصول على أي إجابات ترطب روحه الملول، وتنعش مزاجه الخامد، وإذا لم يجد إلى ذلك من سبيل، ينهض فجأة ويقول لي:

- اكتب أنت يا فؤاد أفندي.

ثم يصرخ فيهن:

- اكتب أنت لما أشوف الطابور الاعوج.

يبرم شاربه ثم يمد يده إلى أكتاف النسوة متحسسا أو باسطا كفه، ملامسا كتف الأولى.

- ورا الست دي.. وراها بالظبط.. شايفين إيدي.. اللي مش ح تكون في الصف تمام حاجي بنفسي وأخرجها.

ينتبه إلى أنه يتحدث فقط مع النساء، فيقول:

- هنا طابور الحريم وهنا طابور الرجال. مش عايز الاختلاط.. أنا صاحي لكم.

وكأنه يود أن يقول:

- أنا بس اللي اختلط.

أصبحت أذهب إلى المستشفى من أجل فكرى وليس من أجل خطى أو الحوادث والحالات.. فكرى لا يتوقف عن إثارة دهشتي فخياله خصب وحالته نفسها تحتاج إلى علاج، فقد زوجه أبوه من زوجته الدميمة رغم أنفه، وهو دائم السخرية منها ومن أهلها الأثرياء المتغطرسين.

اكتشف أن بعض الوافدات لسن مريضات، بل جئن إلى فكري لأنهن أحببن كلامه وتطاوله الظريف، كما يجيء هو كل يوم للتسلية والترويح. ويرفض أماكن أخرى للعمل في المستشفى قد تدر عليه بعض المال.. إنه يطمع فقط في كلمة من هنا ولمسة من هناك، وقد يكون هناك احتكاك أو دفعة في الصدر أو غمزة عين سوداء، أو نظرة مسروقة إلى أعالي الصدور أو الرقاب المرمرية، أو أي بقعة من البقاع النسائية المثيرة لخيال الرجل خاصة فكري.

قررت أن أواجهه بما يصدر عنه من تجاهل لبعض النساء، وقلت له إنه ظالم، فاندهش.. قلت:

– الظلم طبعا هو ألا تعدل في المعاملة.

– صحيح.

– طيب ليه ما بتعاملش المرأة العجوز أو غير الجميلة، أو البائسة بنفس اللطف؟

كان بالكاد يكتب أسماءهن بشكل سريع ولا يسألهن عن الأمراض، ويرمي لهن التذكرة في الهواء.. وإذا سألته عن السر في أنه لم يسأل عن مرضها، يسرع قائلا:

– هو أنا دكتور.. اللي بعده.. وسعي يا أختي.

وهذا ما كان يحدث مع الرجال.

قال لي بذمتك يا فؤاد أفندي ترضى لي أن أتسامر مع الوحشة ولا الكركوبة.. لا ماالكش حق.. وأنا اللي بقول أن ربنا بعت لي اللي يفهمني.

ينهض فكرى ليستكمل عمله فى الخارج وهو يبرم راية رجولته، ويدخل بسرعة إلى عالم النساء الذى يجد متعة كبيرة وهو يتمشى على شواطئه، وهو يحسب أنه يعوض افتقاره للجمال الغائب عن زوجته.

لذلك قال لى عدة مرات العبارة ذاتها:

– أوعى يا فؤاد افندى تتجوز واحدة وحشة لأن أبوها غنى أو حتى وزير.. أرجوك..

– وإذا حصل يا فكرى أفندى واتورطت.

– ح اخرج راسى مَن التربة واقولك.

.. أخص عليك يا فؤاد أفندى زودت عدد الخايبين.

لكنه سرعان ما قبض على يدى وقال أمانة عليك ماتجيب سيرة للسيد الوالد أحسن ده صعب.

فكرى أول من لفت نظرى للبنات والنساء وألقى علىَّ المحاضرات التى تؤهلنى لفتح كتابهن والدخول إلى عالمهن الثرى والعجيب.

بعد أيام من بدء دروسه ولطشات فرشاته الخبيرة على لوحة روحى الصماء، فوجئت بإحدى قريباتى تزورنا مع أهلها وتسحبنى للبلكونة والنسمة هفهافة وناعمة، تقترب منى أكثر من اللازم والليل يقوم بمهمته فى حراسة أمثالنا، قالت:

– هات بوسه .

يا نهار أسود. حصل لى ذهول. كل معلوماتى عنها أنها فتاة محترمة، بالمناسبة، لم يقل احترامى لها بعد ذلك فهى فتاة جادة وعملية ومتفوقة فى

الدراسة ومطيعة لأهلها وست بيتا سعيدا بعد ذلك.. ساعتها فقدت كل سيطرة على عقلي الذي طار وأخذ يتقلب في فضاء الحيرة.

– مالك .. هات بوسه .

لم أشعر بلهفة وفرح كي أقبلها، لكنني شعرت بقوة الأمر، وضرورة الاستجابة.. دنوت منها وقبلتها في خدها، فقالت لي وهي تزغدني في كتفي:

– مش كده.

بدأت أخرج من حصار الأمر إلى التفكير في القبلة ذاتها.. تطلعت إليها.. وجدتها جميلة، عيناها واسعتان تلمعان في الليل وكذلك شفتاها السمتان المتوردتان.. هجمت عليّ وهي تقول

– شوف إزاي.. كده.

انتفض جسدي وغابت الدنيا.. كدت أسقط من طولي، فقد غمرني خمر القبلة واكتشفت أن البنات أروع بكثير مما كنت أتصور، اكتشفت بعد ذلك أن فكري ليس تافها أو مجرد كيان هزيل، لا قيمة له، بل شخص موهوب وصاحب خبرة، تعود أن يتقن عمله وينقل إلى الأجيال الجديدة خلاصة تجربته الإنسانية المميزة.

هو دون أدنى شك ودون خلاف أهم أساتذتي وأصحاب الفضل عليّ. الله يسامحه.

أنت لم تتذكر لماذا امتنعت عن الذهاب للمستشفى رغم تعهدك لفكري ألا تغيب يوما؟

كان يوما بشعا، انتهى العمل في نحو الواحدة ظهرا ومضيت كعادتي أرقب عباس أفندي أمين المخزن الذي يخطف ساعة من النوم في مثل هذا الموعد، رافضا أن يضع وسادة أو كتبا أو حتى قالبا من الطوب تحت رأسه.. كان سمينا ورأسه مرفوعة عن الدكة الخشبية نحو ربع متر معلقة في الهواء.. جلست إلى جواره أتامل وجهه وأهش عنه الذباب.. كنت أحبه لأنه ابن نكتة وطيب إلى درجة السذاجة.

شق صمت الظهيرة صراخ النسوة وزعيق الرجال وأبواق سيارات الإسعاف. اندفعت مع المهرولين إلى حيث تجمعوا عند المشرحة، دفعني فضولي للتلصص.. كانت أرض المشرحة، ذات البلاط الرمادي المتقيح غارقة في الدماء وقطع الأجساد مرمية في كل ركن، رأس هنا وصدر هناك.. ساق منفصلة عن القدم.. بطن مبقورة تتدلى منها الأحشاء، أكتاف وأذرع وأعضاء تناسلية منزوعة الرغبة.. مجزرة لنحو تسعة من الرجال..

أخذت أرتعد كأنني خاضع للتعذيب بالكهرباء.. المشهد فظيع.. تجمدت لا أستطيع الهرب.. تمنيت أن يتحرك كل عضو نحو الآخر حتى يتشكل الجسد من جديد ويغادر صاحبه المشرحة.. حدقت فيّ عيون ذات نظرات متوحشة.. فجأة أسرعت عائدا إلى البيت، أجري لمسافة ثلاثة كيلومترات قافزا فوق فلنكات السكة الحديد.

انفجرت فيهم قنبلة حملها معه ميكانيكي من العلمين.. كان يحاول أن يستخدمها، كوعاء لماء الجوزة!! ظل مشهد الجثث الممزقة يطاردني شهرا حتى رسمته في لوحة صادمة. لكن مواقف وكلمات فكري ظلت محفورة في الذاكرة، لا تمحوها عوامل التعرية البشرية.

فوزى

- أترك ما بيدك. وعلمنى الآن القراءة والكتابة.

دهشت، فلم يطلب هذا الطلب من قبل، وما سر هذه اللهجة الحاسمة؟ كلما سألته.. استعجلنى للقيام بالمهمة، وكلما اعتذرت تشبث، فقلت:

- لا بأس، تعال يا سيدى.

كان قد بلغ السابعة عشرة وأنا فى الثالثة الإعدادية، وقد بدأت مع فبراير ١٩٥٧ أرفع درجة الاستعداد للامتحان ، اقتصرت على يوم واحد للكرة وتخليت عن الرسم وأبقيت على القراءة الحرة خارج المقرر.

عاد فوزى من الدكان فى هذه الليلة محتقن الوجه، بادى الانفعال.. أذعنت لرغبته لأننى أحبه، فقد كان وهو الذى يكبرنى بأربعة أعوام يحترمنى ويحافظ على مشاعرى. شرعت أشرح له الأبجدية، وبعض الكلمات البسيطة، ورغم أنه كان مجهدا بعد عمل شاق ينتهى كل ليلة فى العاشرة، إلا أنه تحمس واستوعب وسأل كثيرا وفرح، لأنه بعد منتصف الليل بقليل استطاع أن يقرأ: أب. أم. كتب. كنس. شرب. لعب ونام وضرب.

تركته ونمت وعند الصباح وجدته مستيقظا يقرأ عناوين الجريدة القديمة وبعض فقرات من كتب المدرسة. خرجنا معا.. هو إلى الدكان وأنا إلى المدرسة.. دهشت لأنه أنبأنى بأنه لم ينم حتى يتقن القراءة.. ولما التقينا فى المساء. سألته عن سر اللهفة على التعلم.. قال:

- زارنا فى المحل أمس مدرسان للجغرافيا لاستلام ملابسهما وكان باقيا بعض اللمسات فجلسا على كرسيين إلى جوارى وتبادلا الحديث وكان

حول دور جمال عبد الناصر فى تشجيع حركات التحرر فى أفريقيا، وورد على لسان أحدهما أسماء بعض العواصم، ولاحظت أن بعضها خطأ، فذكرت له ما أعرف، نظر إلى باحتقار وقال.

خليك فى حالك. كيف لك أن تعلم الصواب من الخطأ؟

كانت قد تكررت مثل هذه المواقف، لكن نظرات المدرسين أغاظتنى جدا وجعلتنى أكره نفسى، فقررت الحصول على شهادة.

كان فوزى بالفعل مثقفا، يتابع كل صغيرة وكبيرة من خلال الراديو الذى لم يكن يفارقه. فكان يعمل بتركيز شديد، يده بالإبرة تخطف الغرز وتخيط الثياب، ربما أسرع من الماكينة. لكن أذنيه مع كل كلمة تبثها الإذاعة خاصة الأخبار والبرامج الحوارية حول مختلف القضايا الساخنة.

زارنا الأستاذ فودة زوج عمتى وهو ناظر مدرسة ومثقف كبير وصديق حميم للأسرة، تهلل قلبه لأخبار فوزى وعاد بعد يومين ليقول أنه قدم له فى امتحان الشهادة الابتدائية نظام المنازل، وسوف يتفرغ لمعاونته، ليحصل عليها خلال الثلاثة أشهر الباقية.. أقيم المعسكر المسائى كل ليلة بعد أن يعود فوزى من العمل فى الدكان. فقد رفض والدى تركه المحل متشككا فى قدرته على النجاح، وحافظ عمى فودة على الحضور يوميا لشرح كل المواد الدراسية.. كانت المفاجأة نجاحه.

كان عمى فودة أحد النماذج العجيبة فى العائلة. فقد كان وهو طالب يصر على أن يجمع حوله أولاد القرية ويعلمهم ثم يمضى لحل المشكلات العائلية والتوفيق بين المتخاصمين، ولما أصبح مدرسا خارج القرية كان يعود إلى البلد لا ليرتاح ولكن ليمر على الطلاب لمساعدتهم ويرفض سيرة أى مليم يمكن أن يأخذه، وعندما سكن إلى جوارنا فى بنها وأصبح ناظرا ثم مديرا للإدارة التعليمية، ظل كما هو.. يمشى فى الشوارع لساعد الناس. وهو فى الأغلب لا يعرفهم، ويبحث لهم عن مصالحهم لدى موظفين لا يعرفهم.

كان من عائلتنا أيضا طبيب مشهور فيه السمات ذاتها، يخرج من المستشفى ليمشى فى الشوراع بحثا عن المرضى ويعالجهم مجانا أو بقروش قليلة للغاية، وكم قابلته وهو يلف فى الحوارى بحث عن شخص كان منذ أسبوع قد سأله عن دواء لقم المعدة أو لتعب الكلى أو للانيميا وقد حصل على الدواء ويود تسليمه وقد نسى اسمه وشكله.

تجده وهو يشترى ساندوتيش الطعمية بنفسه يقول للبائع:

- عدى علىّ فى العيادة أول ما تفضى.. أنت عينيك صفرا.

يفعل ذلك مع بائعة الجرجير وبائع البليلة وسايس الموقف والمسحراتى.

كيف تجتمع هذه النماذج المتناقضة فى عائلة واحدة؟

بشر فى منتهى الكرم والتضحية.. وبشر فى منتهى القسوة والانانية.. بشر فى منتهى الذكاء والعبقرية، وغيرهم على درجة عالية من الغباء.

فى السنة التالية قدم عمى فودة لفوزى للحصول على الشهادة الإعدادية بنظام المنازل، وكنت فى السنة الرابعة، أقيم المعسكر من جديد ليضم نحو سبعة يسهرون فى بيتنا.. ستة فى السنة الرابعة وفوزى وحده فى الأربع سنوات مجتمعة مع عمله بالنهار فى حياكة الملابس، وكانت المفاجأة التالية والرائعة نجاح فوزى بتفوق ونجاح ثلاثة من الستة.

عندئذ رأى والدى أن يترك فوزى الخياطة ويتفرغ للدراسة وكان قد بلغ الثامنة عشرة، وهو من مواليد أكتوبر فلم تقبله الثانوية العامة التى رفض أبى دخولى إليها كى أصحب أخى إلى الثانوية التجرية فاذعنت.. كنت أود بشوق بالغ دخول الثانوية لأمضى إلى كلية الآداب فهى التى تتناسب وميلى للأدب.

كان فوزى دائما وفى كل عام هو الأول، يحصل على أعلى الدرجات فى كل مادة، ولا يكف عن مناقشة الأساتذة والجدال معهم، فقد كان يأكل الكتب أكلا ويشترى بمصروفه كتبا أخرى للدراسة ذاتها، حتى أمكنه أن يحصل

على الدبلوم بتفوق فكان الأول على القليوبية والسابع على الجمهورية.. أرسلت إليه عدة بنوك تطلبه للعمل فاختار البنك المركزى وحصل على بكالوريوس التجارة ودبلوم فى الاقتصاد ودبلوم فى الدراسات الإفريقية، وقد حالت مشاركته فى تأسيس بنك فيصل فى مصر والعالم العربى دون استكمال رسالته للماجستير، ولم يمهله العمر بعد ذلك بسنوات قليلة ليحقق ما خطط له من آمال عريضة، ومنها مشروعاته الخيرية التى بدأها وأثمرت خيرا لأولاده بعد رحيله.

لقد نسيت ولعلك تعمدت أن تنسى موقفا لأخيك لا يستحق أن نتجاهله.

- لا أذكر، أو لا أعرف أى يوم بالتحديد.

- يوم ظهور نتيجة الدبلوم.

كان عام ١٩٦١ من الأعوام التى حفرت بصمتها على خريطة حياتى.. ذاكرت فيه بإخلاص ودأب لأحصل على الدبلوم، وكانت المدرسة جميعها تستشعر قدراتى وأخى، واستعد المدرسون والناظر الرائع صبحى ميخائيل ليتلقوا فى نهاية العام خبر فوز أحدنا بالمركز الأول على مستوى الجمهورية.

أوشكت أن أكون وأخى أبرز الطلاب فى جميع المواد وفى مقدمتها اللغات الثلاث، كما كنت ماهرا فى المحاسبة والاقتصاد وأعمال البنوك والسكرتارية خاصة أننا قضينا الإجازات جميعها نتدرب فى البنوك.

أنت لا تتمتع بالدقة الكافية فى سرد الأحداث، فلم تكن مخلصا تماما للدراسة، بل كنت مشغولا بعض الوقت بكريمة تكتب لها الشعر كل ليلة، كما أنك لم تقطع علاقتك تماما بالقراءة الحرة.

لم تحرمنى كريمة من حنانها وتشجيعها، ومرورها علىّ بعد منتصف الليل أغلب الليالى، وكان طبيعيا أن أكتب لها بيتين أو ثلاثة بين الحين والحين. هل كان من الواجب فصم العلاقة تماما وهى النافذة المضيئة فى حياتى وهى منبع الغذاء الروحى ومصدر النسيم العليل، وما كنت بقادر على

ٓن أهجر أحبابى من الكتاب والشعراء.. كل شىء قابل لأن يتبدد مع الريح ومع الزمن إلا تجليات القرائح وجمال الكلمات المجنحة التى تعيد صياغة الحياة على نحو جديد ومركب، مضافا إليه عشرات الملكات، نازعة لفتائل المواهب المتفجرة بالإبداع لتجدد الدائرة المنتجة لشرارات الخلق الرائع لعالم نبيل تعجز عن تحقيقه حتى الأديان السماوية.لأن الملكات تصنع منظومة باهرة الاكتمال.

فى الليلة السابقة على ظهور النتيجة سهرت مع نيشتة لأعرف ماذا قال له زرادشت، لقد أسرنى هذا المجنون العبقرى كما أسرنى ألبير كامى وديستوفسكي، وتمنيت أن أكون مجنونا مثلهم ومازلت أتمنى، ولكن الوقت فيما يبدو قد فات وأفلتت الفرصة، ولم استمتع بهذا الشرف ولم أمنح هذه الهبة التى مكنت المجانين من تطوير العالم وتوصيله إلى ذرى المجد أو تدميره، وبعض التدمير مجد.

عندما استيقظت كان فوزى إلى جانب سريرى.. قال:

– لقد سألت عن النتيجة وعلمت أنها ستعلق مع الظهيرة، وأنا أود أن أعزمك على «كابتشينو» فى النادى.

يعلم أنى أحب الكابتشينو.. لم تكن لى طقوس خاصة كى أفيق. مضيت معه إلى النادى المطل على النيل.

- التعليم.. ليس كل شىء.

أدهشتنى عبارته رغم أننى كنت مازال نصف نائم، فاستطرد

– أقصد أن أهم من التعليم الإرادة.

- التعليم وسيلة والإرادة منهج، وصفة طبيعية قد لا يمتلكها الجميع.

قال من ملك الإرادة لا تقف فى طريقه عقبة، ولا تهزه الأحداث، والنبتة لابد أن ترى النور حتى لو كانت فى صخرة.. إنها إرادة الطبيعة.

انشغلت عنه بالمشروب اللذيذ الساخن، ومضى يحدثنى عن الحياة والأمل

، والليل الذى لابد أن يأتى مهما طال النهار، والعكس وراد بنفس الثبات.

قلت له: لقد بذلنا جهدا كبيرا هذا العام، فما هى توقعاتك؟

قال: ما دمنا قد بذلنا الجهد فلا تعنينى النتيجة، سوف يكون ضميرى راضيا.

بعد حديث سخيف وثقيل الظل نهضت مصرا على الذهاب لمعرفة النتيجة، لم يحفل بنهوضى وقال بلا مبالاة: هيا بنا نستأجر زورقا ونجدف قليلا فى النهر.

قلت له مداعبا: أنت الآن تجدف.

سألنى: هل تؤمن بالقدر؟

- جدا.

- بنسبة كم؟

- إنه لا يكف عن العمل.

لكن الإنسان.

- أحيانا يصنع المعجزات مثلك.

ضحك بلا حماس، فمددت يدى إليه وجذبته لينهض.

قلت له: هيا لنعرف النتيجة ونفرح أبى وأمى.

قال: النتائج ليست شاغلنا.

حدقت فيه مندهشا، وقلت:

- واضح أن أحدا أعطاك حتة حشيش.. مالك يا فوزى.

أمسك بكتفى وقال فى منتهى الرقة:

- لا تحزن يا فؤاد.. أنت رسبت.

لم تستطع قدماى أن تحملانى.. جلست وقد أصابتنى شبه غيبوبة.

بهجة الخمسينيات

لفت الهدهد نظرى ونظر أصدقائى وأكثرهم من الجيران السودانيين .. هذا الاعتداد بالنفس، والإحساس الزائد بالكرامة .. الرشاقة والجمال.. غرابة التشكيل فى الرأس والجسد واللون .. العرف المشرشر والمنقار الطويل المستقيم .. الحساسية المرهفة لكل صوت وحركة .. قفزاته التى لاتكاد تلمس الأرض، قال عثمان السودانى :

– من فيكم يستطيع صيده ؟

صمتنا جميعا .. ثم قال محجوب :

– أنا .

قال عثمان

– من يصطاده أعطيه هذا الخاتم .

تحولنا جميعا بعيوننا إلى يده حيث يبرز فيها بوضوح خاتم فضى بفص أبيض .

قال جميل

أنا أصطاده، ولا أريد الخاتم، بل أريد شيئا آخر .

سأله عثمان .

– ما هو ؟

قال جميل .

– كرباج الصول سر الختم

الصول والد عثمان من الهجانة الذين كانوا أداة السلطة في عقاب المصريين وبالذات الفلاحين، وبعد الثورة انتهى دورهم تماما، ولم تطلب منهم الحكومة مغادرة البلاد، لم يفكر أحد منهم إلا القليل فى العودة إلى السودان، فمعظمهم أحب مصر وارتبط بعلاقات مودة عميقة وأواصر قوية

مع إخوانهم المصريين . قضينا ليال طويلة نستمع إلى حكاياتهم عن أهالى الخرطوم وأم درمان .. جذبتنا الأغانى والقصص والرقصات والعادات الغريبة علينا .

اندفعنا جميعا نقول دون تفكير

- نعم .. من يصطاده يحصل على الكرباج .

اضطرب عثمان ، ثم قال : كرباج أبى ليس لعبة .

سأله جميل .

- ما قيمته بالنسبة لأبيك ؟

صمت عثمان لحظة، وبدا كأنه فى موقف حرج، تململ ثم قال وهو يفتح عينيه إلى أقصاهما :

- أبى يفرط فى أى شىء إلا الكرباج

قال جميل :

هذا شرطى .. سوف أسلمك الهدهد وتسلمنى الكرباج .

سأله محجوب : ولماذا تريد الكرباج بالذات يا جميل ؟

لم يجب جميل، ولكنه وجه نظرات ذات معنى لعثمان فتذكرت أن عثمان وجميل قد تعاركا منذ أيام، أسرعت أقول :

أنا أصطاد الهدهد وأحصل على الخاتم .

اندفع عثمان قائلاً ، كمن أطلق سراحه :

- إذن هيا .. من يسلمنى الهدهد أسلمه الخاتم.

أمسكت بكم جميل وجذبته فأطاع .. توجهنا جميعا إلى الجسر الرملى العالى حيث كان يمر عليه خط سكة حديد الدلتا. وكنا قد تعودنا أن نرى الهداهد تحط عليه وتتجول، تلتقط الحب المتساقط من الركاب .

أسرعت إلى البيت فأحضرت خيطا وربطت فى طرفه حبات من القمح والفول وغيرها، وأحضر جميل نبلته وأحضر محجوب صفحة من الكرتون مدهونة بالصمغ ونثر عليها القمح .. قال عثمان لنا

- المسافة بين كل منكم لاتقل عن ثلاثين مترا .

عندما اقتربنا من الجسر شعرنا بأن الشمس قاسية جدا والحرارة

لاهبة. رجعنا إلى الشجر، نأوى إلى ظله، فى انتظار ظهور الهدهد، وعندها يرمى كل منا شركه .

مضت الساعات ونحن وقوف ولم تأت الهداهد، وعاودنا التجربة فى اليوم التالى . جاءت المخلوقات الجميلة فتهادت وتمايلت فى ثقة ورأت حيلنا ولم تحفل بها .. مضت تلتقط ما تجده وما يروق لها وتتلفت بسرعة. لم تفكر فى أن تعير شراكنا أى اهتمام .. تجددت المحاولة فى اليوم الثالث ، فلم تعبأ، وجربنا فى اليوم الرابع الهجوم المباشر فلم نفلح .

عرض علينا عثمان بعد أن خاب مسعانا أن نمسك بحدأة، فلم يرحب أحد باللعبة، ربما يأسا لكنى وافقت، أحضرت فى اليوم الموعود كتكوتا أصفر وربطته بحبل وعرضته فى فضاء قريب من الرياح التوفيقى .. مضت الشمس تحرق الكتكوت وتحرقنى وأنا صامد، بينما الأولاد الأشقياء يضحكون .. ظهرت الحدأة أخيرا فتأهبت، وما أن انقضت على الكتكوت الوحيد الذى رضى مرغما دخول التجربة التاريخية الفريدة للامسك بالطائر العنيد حتى هجمت عليها، وبالكاد لمست جناحها، وكنت قد انتظرت حتى أصبحت على بعد متر واحد من الفريسة الضئيلة .. لكننى وجدت نفسى من شدة الاندفاع منكفئا على بطنى مغموس الوجه فى التراب، والضحك يتعالى وأنا أبصق التراب من فمى والتفت بحثا عن الكتكوت فلم أجده، ورأيت الطائر البارع يقبض بأظافره على الكتكوت الجميل الذى كنت قد سرقته من عشة فراخنا، وكان ضمن خمسين اشترتهم الوالدة قبل يومين، ويمثلون أحدث دفعة لتزويد البيت بالبيض واللحم بعد شهور، لكن هذا الكتكوت بالذات، كان قد استحوذ على حبى، لأنه سريع الحركة منحول الرقبة ويتمتع بشخصية واضحة يبدو أنه سيصبح ديكا فى المستقبل ويمارس دوره كأحد القيادات البارزة فى عالم الدواجن .. لقد أسأت التصرف دون شك .

ندمى الآن مضاعف وعلى الآن أن أبحث عن وسيلة لإنباء أمى بغياب الكتكوت فى ظروف غامضة، لأنها تعدهم كل ليلة .. على أن أبحث عن أى سبب لفقدانه، وليس طبعا بإبلاغها الحقيقة، فهل بأيدينا نحمل الأحباب إلى الأشرار؟! لقد كانت التضحية بالكتكوت إحدى سقطاتى الثقيلة، ولقد

حالفني التوفيق في تأليف عدة قصص تحكي ظروف مقتل الراحل الكريم لأحكي لأمي واحدة منها، ليس فيها أي ذكر للحدأة، ومضيت إلى الوالدة أحمل إليها أسفي لما عاناه الفقيد بعد أن جددت القصة المقنعة، لكني اعترفت لها في آخر لحظة بما جرى بالضبط.

نظرت إلى كعادتها طويلا بعتاب صامت .. أحسست بنظراتها اللائمة كأنها تمسك بسن سكين تمر به على جسدي كله دون أن تضغط، لكنني كنت في حالة خوف حقيقي وإحساس عميق بالذنب، ثم أعلنت قرارها أخيرا

- لن تخرج يومين على الإطلاق إلا لمطالب البيت .

تنهدت فرحا .. لن يضايقني القعود في البيت، وهي تعلم ذلك .. سوف أرسم وأقرأ وألعب مع نفسي الشطرنج وأصعد إلى السطح لمشاهدة الحمام والأرانب .

بعد يومين، قالت أمي :

- هيا ارتد ملابسك سنذهب إلى السينما.

كانت تحب السينما، ونذهب سويا إليها مرة كل أسبوعين على الأكثر .. السينما كانت وربما مازالت أجمل فواكه الثقافة والجمال والترويح .. غزل البنات. يا حبيب الروح. صراع في الوادي . الاسماعيليت . ليلى مراد وفاتن وهدى سلطان وفريد .. الأفلام الأجنبية ونجومها، جاك ليمون .. كاري جرانت.. جاري كوبر... بيتي ديفيز.. شيرلي تمبل.. اليزابيث تايلور.. صوفيا لورين.. كيم نوفاك.. يول براينر.. جريجوري بيك.. أورسون ويلز .. آفا جارنز.. كيرك دوجلاس .. بيرت لانكستر .. إستر ويليامز .. مارلون براندو .. العالم دون سينما يخلو من الجمال والإلهام .

أتصور أن أجمل شيء الآن في الدنيا هو السينما .. أحببت الأدب جدا بوصفه فرداً عزيزاً من عائلتي، لكن السينما فتاة جميلة مجنونة وثائرة .. تطير وتحلق وتحلم وتتخيل كما تشاء .. فتاة تحتشد بالحرية وتتفجر بالجمال وتحتوي العالم .. أذكر ولازلت جمال الظلام في دور العرض وسحر جدرانها وحلاوة روادها المجتمعين يقرقزون اللب والفشار،

يأكلون ويشربون العصائر ويلاعبون ويهرشون. ويتهامسون تعليقا على ما يقال.

لم أكن أود أن ينتهي الفيلم خاصة الأجنبي إذ أكون مغموساً في الصورة المحملة بالجمال والخيال والشخصيات والأحداث والحركة وعنفوان الطبيعة .. أتوحد مع الطيبين من الأبطال وأتعاطف مع الضعفاء وأتمنى من كل قلبي أن يموت الأشقياء من الطغاة والمجرمين .. أنسى تماما ما كان قبل دخولي. بل أنسى أني جائع أو خائف. أنسى أهلي والمدرسة والكتب والكرة والسياسة والناس. وعندما أخرج يصدمني النور والحركة والشارع المتوتر .. أحتاج إلى وقت كي أتكيف مع عالم جديد مختلف ومفتقد للجمال. فلماذا كنت أستشعر الجمال منذ قليل في فيلم تملأه أحداث القتل والخطف والحرب والدمار؟ إنها السينما. ذلك الاختراع العبقري الذي لم ينسخه ابتكار آخر حتى الآن .. لابد أن أتعلم سينما .. لابد.

بعد أيام عاد عثمان ليطلب إليا متحديا قتل الخفاش .. فزعنا جميعا ورفضنا. فقال إنه مستعد لذلك، وسوف نلتقي عند المطحن المهجور بعد الترب وسنتجنب طينا طريق المقابر. تجمعنا بعد العشاء لمشاهدة التجربة المثيرة، وكلما طالبناه بالتحرك نحو الباب المخلوع للمطحن، ارتعد واهتزت البندقية الرش التي كان يحملها وكان أحد أقاربه قد تركها عنده .. مضى الوقت ونحن نشجعه وندفعه .. كان البعض يزينون له التقدم وطرد الخوف من التجربة، إلى أن قال محجوب هيا بنا نعود يا أولاد .. الخفافيش لابد غادرت المطحن. لكننا فوجئنا عندما تحركنا عائدين بالعشرات من الخفافيش تهجم علينا وتطاردنا، فأسرعنا نركض في فزع وأكثرنا وقع، وبعضنا صرخ، وجريت حتى سبقتهم وكتمت كل مخاوفي .. لكن قلبي كاد يتوقف عن النبض.

الحب الأول

فى ليالى صيف ١٩٦٠ . كنا نسهر فوق سطوح بيتنا بالقرب من النيل، نستمع إلى أم كلثوم تشدو بأغانيها العاطفية التى تنفذ إلى الوجدان، وتحيى القلوب وتفتح للأرواح آفاق الحب والخيال والجمال.. نبرات صوتها وشخصيتها مع حلاوة الكلمات وعمقها، وطزاجة الألحان تثير الشجن وتحرك العواطف الخامدة، كنت أتمثلها وأنا أستمع إليها كأنها واقفة أمامى فوق قمة عالية أو كأنها نخلة سامقة، وأحياناً أستشعر أنها تهبط من السماء إلى المسرح ثم تعود إليها محاطة بالملائكة، وفى كل الأحوال أحس أنها مثل منحوتات مختار .. معلم مهم جداً من معالم الدنيا بسبب هذا الوهج الإنسانى الذى يشعه صوتها محملا بعبق الشعر وسحر الموسيقى .

الأهات، الأمل، يا ظالمنى، يا هاجرنى، قصة حبى، رق الحبيب، عودت عينى، دليلى احتار، النيل ، هو صحيح الهوى غلاب، الشك، ولد الهدى ، لسه فاكر ، سلوا قلبى ، الأولة فى الغرام ، أروح لمين ، مصر تتحدث عن نفسها .

فى الخميس الأول من كل شهر يسهر تقريبا العالم العربى كله مع أم كلثوم التى تتحول سهرتها إلى حفلة سمر ممتدة من المحيط إلى الخليج، وهى إلى جانب ذلك نزهة ووليمة للبسطاء والفقراء. نسهر نحن فوق السطح ويرطب أبداننا النسيم العليل، بينما القمر الحانى يتروى فى عبوره لعله يلتقط بعض الأنغام الآسرة.

أمامنا السودانى واللب وعدة الشاى وأحيانا الكوتشينة والدومينو .. أسرتنا مكونة من أبى وأمى وفوزى ونازك وفتحى والرضيعة عواطف أختى الوحيدة، نازك رجل أقسم أبى قبل مولده أن يسمى القادم مهما كان نوعه باسم جارتنا التى رعت أمى طويلا وأخلصت فى صداقتها بشكل نادر،

وإعجاباً بها أصر الوالد بعناده التاريخي حتى بعد أن أبلغوه الخبر أن يحمل المولود الذكر اسمها .

أم كلثوم تمسك بنا جسدا وروحا .. عقلا ووجدانا .. تشركنا السهر بعض السيدات والبنات من الجيران اللاتي لايملكن راديو ، هذا إذا لم يكن أبي موجودا .

كانت أجمل عاشقات الست شابة في التاسعة عشرة .. جميلة وفائرة . خفيفة الظل ومشرقة .. تتميز قليلا عن الأخريات بعدم قدرتها على تحمل حرارة الطقس فتكشف قليلا من لحم الذراعين والصدر، نبهتها أمي عدة مرات، لكنها لم تكن تستجيب وتدعي النسيان .

أنا في السادسة عشرة يشوقني أن أرقب الأنثى، وكريمة ذات جسد ريان وقوام ملفوف ، ترتبط في ذهني بالمطربة صباح وهي في ذروة الشباب .. أحرص على القرب منها بأي وسيلة فإن لم ألمسها شممتها . ولجسدها رائحة عطرة ليست ككل الروائح .. كم تنفستها وغذيت جسدي وخلاياي .. طويلا كنت أحدق في لحم الذراع وأنفذ في ذراته المثيرة .. أغيب عن أم كلثوم حتى تستردني بعبارة هائجة يعلو معها اللحن الذي يجرجر الشاردين .

كان الجميع يرحب بها فهي تميل إلى المرح، وبها قدر غير قليل من الجسارة أو الصراحة والوضوح، تعلق على وقفات أم كلثوم ولزماتها ، تنحني أو تميل وتسهو عن نفسها، يتراجع الثوب قليلا عن الساقين، فتغيب أم كلثوم ويغيب الحضور، وانقلب داخل مراهقتي، فلا أملك مقاومة استراق النظر وأكتشف ذلك الدبيب في صدري، ثمة نمل كبير أو ما يشبهه يمشي تحت جلدي وفي أعضائي .

الصيف وكريمة، القمر والنسمت، أم كلثوم وعبق الفن وسحر الأنوثة المتأججة . اكتشف في الجديد لجسدي الذي لم يكف عن فضح خباياه في مدد وجيزة منذ بدأ مشروعه السري مع فكري، المعلم الأول قبل أرسطو .. ترعى

ذلك كله وتستقبله بحنان وجمال وعمق صفحت من الكتب أقرأها .. يشرع خيالى فى الانطلاق هائما هنا وهناك حتى ليعانق الأشجر والأطيار والنجوم والترع ، وتلك المزروعات الواعدة تفرش خضرتها النضرة على وجه الحقول .

كتبت عن كريمة قصيدة صغيرة وكان يجب أن أكتب حتى لو لم أكن أدرى من أمر الشعر شيئا .. استقبلتها بتحفظ .. كتبت ثانية فسألتنى عن كاتبها . قلت لها أنا .

تولتها الدهشة لأنها بالفعل تحوى وصفا لملامحها وجلستنا والحضور .. فوجئت بها بعد منتصف الليل تنقر على شباكى وقدمت لى قطعة كبيرة من البسبوسة، وابتسمت لى ابتسامة لم ألمح مثلها من قبل . قالت إنها صنعتها خصيصا من أجلى ..

تأملتها طويلاً ووددت عناقها فما اسطعت .. أقبلت عليها ألتهمها باستمتاع، لكن ببطء .. ألوكها فى فمى قطعة بعد قطعة كأنى أسألها عن الأصابع التى صنعتها ، وهل تذكرتنى وهى تضع المقادير وتسويها فى الصينية .. قبل الصباح كنت قد انتهيت من قصيدة «البسبوسة» .

فى ليلة تالية جاءنى النقر الجميل يؤنس وحشتى ويوقظنى حتى الصباح .. مدت إلىَّ يدها اللدنة واهبة الحياة عبر النافذة، فمددت يدى وظللت متمسكا بها وهى تتطلع إلىَّ بنظرات بدت حائرة .. شردت ثم سحبت يدها وغضت طرفها واستدارت عائدة ، وعند باب بيتها الذى يواجهنا توقفت، ثم عادت وكنت فى انتظارها أتابع خطوها وأشحن بطاريتى من مرآها البديع . مدت يدها بلفة ورقية صغيرة وجدت بها ساندوتش كفتة بعد أن أكلته كتبت قصيدة جديدة لا علاقة لها بالكفتة .

كتبت لها وعنها قصائد كثيرة، لكن الكلمت كانت عاجزة ولا تملك القدرة على وصف جمالها وشعورى .. أصبحت متعبداً فى محرابها أفكر فيها طيلة النهار وأسهر من أجلها الليل .. حياتى كلها تحط على شواطىء عينيها

وأيامى تتحدد بدقات قلبها . **السعادة تغمر العالم إذا ابتسمت**، أما جسدها البليغ الريان فقد لاعبنى كثيرا وعبث بى ذلك المتوحش ممزق الفساتين.. كم تقلبت على وهج فورانه وجموحه؟ .. صدرها الشقى يطاردنى ويجتذبنى إليه .. لا يفتأ يطل على من مكمنه ويخرج لى لسانه .. الخصر النحيل والقوام الوشيق والشفاه المتأججة القانية المكتنزة المتأهبة للالتهام اللذيذ .. كل ما فيها مدجج بالإثارة واللهب .. إن عشقنا فعذرنا أن فى وجهنا نظر.

لم تذكر إنك حاولت أن تقبلها فى داركم بعد أن مهدت الملعب ووزعت بكل دهاء سكان الدار جميعا ، لكنها لم تمكنك وقبعت وحدك تلوك الخيبة والندم، وحاولت مرة ثانية وثالثة، إلى أن حسمت أمرك بالغضب والاختفاء . تجاهلتك أياما حتى اسودت الدنيا فى وجهك، وتخلصت من عذاباتك بقصيدة عتاب وعهد على الحب العذرى، فعادت وعادت معها الدنيا المشرقة. طرت فرحا واصطحبتها فى نزهة على نيل وافرة البهجة .. اشتريت لها الذرة المشوية وغزل البنات والترمس .. هى تأكل وتضحك، وأنت تطير وتسبح فى حلم برىء ولذيذ.

فوجئت بعد أيام بمدرس التربية الرياضية بمدرستى قد تقدم لخطبتها ووافقت الأسرة.. أسقط فى يدى فقد رأيتها فرحة.. سألتنى عن رأيى فيه تركتها ومضيت إلى النهر أشكوها.. كان الرجل حتى الدقيقة السابقة على هذا الخبر مهذبا ومحترماً، فجأة رأيته شخصا سيئ وانتهازيا، خاطف لأحلامنا ومقتحما عش هوانا . أقبلت على القراءة ودفنت مأساتى فى لعب الكرة حيث أبذل مجهوداً بدنيا كبيرا يلهينى ويهدنى . ولأول مرة يخطر ببالى أنها أكبر منى بثلاث سنوات، فهل لهذا أثر ؟

الغريب أنها بعد خطوبتها بأيام أتت فى الليل ومدت يدها إلىَّ بتفاحة . فرحت بنقرها على شباك قلبى .. قالت لى . أرجوك لاتغار منه ، أنت لك مكانة خاصة، عاد إلىَّ توازنى النفسى .

فى اليوم التالى دعتنى لنزهة على النيل سرنا معا نتحدث فى كل شىء

وأقرأ عليها آخر ما كتبت، أمسكت يدها فجفلت فى البداية ثم استسلمت .. اشتريت لها ذرة مشوية وترمس وأهديتها وردة بعد أن قبلتها قبلة طويلة .. الوردة، سرنا مسافات طويلة، درنا تقريبا حول بنها العسل .. المدينة الحبيبة .. السير على ضفة الرياح التوفيقى أوصلنا إلى أتريب ثم إلى مدرسة البنات الجميلة، وإلى كوبرى بنها .. كوبرى الغرام .. فى الواقع وفى الأفلام .. دهشت عندما علمت أن مدرسة التجارة نمشى لها شمالاً داخل غابة من الهيش نحو نصف كيلو . سرنا على كورنيش فرع دمياط وأخذنا فلوكة وغنينا معا بعض الأغانى المشتركة «دويتو» وضحكنا كثيراً .. نفذنا من جانب مسجد الضعيف إلى شارع اللحم والسوق ومقهى المثلث والنفق.. صعدنا جنوبا فى شارع الجيش . شربنا سينالكو واشتريت اللب والسودانى .. وصلنا الرياح ومررنا بالسجن والمحلج حتى شارعنا .. وقفنا على سفح طريق الدلتا الرملى لا أود الفراق .. أبقت يدها فى يدى طويلا، ثم تسللت من روحى عائدة وحدها إلى بيتها .. يالحلاوة الحب ويالروعة القلب المحب المخلص! انتعشت روحى وغادرت حالة اليأس. لقد استعدت قلبى وحبى والأمل .

عندما وصلت البيت وجلست وحدى تناهى إلىَّ صوت أم كلثوم كالسلك الشائك يمر على حرير وجدانى .. أكاد أشك فيك لأنى أكاد أشك فى نفسى وأنت منى .

بعد أيام اندفعت داخلة علينا وطلبت أن أرتدى ملابسى على عجل وأصحبها إلى المستشفى، يمزق بطنها مغص .. فى ثوان معدودة كنت معها على الطريق .. استدعيت عربة حنطور.. رحب بى من يعرفوننى من زملاء أبى فى الاستقبال .

طلب الطبيب الشاب من كريمة أن تنام على منضدة الكشف وتعرى بطنها .. تدخلت .

- إلا هذا .. يكفى أن تقول لك ما تحس به .

ضحك الحاضرون الذين يعرفونني واندهش الطبيب .. أوضحوا له أنني ابن حضرة المعاون .. حاولوا التوسط بيني وبين الطبيب . لم أتنازل عن موقفي وهو الإصرار على عدم كشف أي شيء من جسدها الذي هو جسدي ، أقصد ملكي .

قال عم حسنين

لاتقلق يا فؤاد أفندي ستكشف بطنها تحت الملاءة البيضاء .

وافقت .

مد الطبيب يده تحت الملاءة .. اندفعت أقول .

- لا .. هذا لا يكون أبدا .

تنبهت أن كريمة تقبض على أسنانها ألما وضحكاً .

تأفف الطبيب وتبرم ونظر إلى المرضين .. قلت

- ألا تكفي السماعة ؟

قال في شبه تحد :

لا .. لن تكفي .

قلت

- اكشف أنت بالسماعة وأضع أنا يدي وأحكي لك ما أحسه .

ضحك الجميع حتى الطبيب وظللت وحدي جاداً وحاداً، عابس الوجه متنبها لبضاعتي .. اكتفى الطبيب أخيرا بالسماعة وهو ينظر إليّ في شبه إشفاق، أخذ يسألها عما تحس به وما أكلته . والسخن والبارد .. النوافذ والسوابق المشابهة، حتى توقف واستدار ليكتب الروشتة فتنفست بعمق. أمر بإعطائها حقنة مسكنة .

رفعت الملاءة وسوت ملابسها وشعرت عندئذ بالانتصار .. شكرت الطبيب، فمال عليّ وسألني .

- هل أنت خطيبها ؟

سألته .

- لماذا تسأل ؟

قال

لأنها تلبس دبلة وأنت لا تلبس .

نظرت إلى أصبعى .. لم أعثر على الإجابة الملائمة .. غادرنا المستشفى بعد أن شكرت زملاء والدى الذين كانوا لايزالون أسرى كريزة الضحك.

فى عصر اليوم التالى قال والدى

- عجبك ما حدث بالمستشفى أمس ؟

سألته وأنا أنكس رأسى

- هل شكى أحد منى ؟

- لا .

قلت أنت تعرفهم يبالغون، ويصنعون من الحبة قبة .

أشاح بوجهه، وعلمت أنه أفضى بمخاوفه واستيائه لوالدتى، فقد قالت

- ركز فى مذاكرتك شوية .. دى آخر سنة .

سنة رديئة .. السنة التى شهدت رسوبى الوحيد، رغم أننى حاولت أن أركز، وقد شهدت نفس السنة موت آبلة صفية التى كان يحبها الأستاذ ناجى، ماتت الرقة والعذوبة والجمال بسبب انفجار مفاجىء للمصران الأعور.. كان العاشقان قد أعدا كل شيء للزواج ولم يتبق على تتويج سنوات الحب الطويلة إلا أيام ، لم تنقطع علاقتى بهما حتى بعد تركى المدرسة الإعدادية وإن لم أصبح رسولا .. ترقيت إلى درجة صديق .

زرته فوجدته شبه مجنوب .. شعر طويل أشعث، ملابس قذرة ، شفاه بيضاء .. هزال وذهول .. لا يفتح فمه بكلمة .. عندما رآنى طفرت دمعة رغماً عنه. عانقنى ثم اختفى بداخله يناجى صفية .

خرجت وأنا ألعن الموت ثم استغفرت الرب، لأن الموت من جنوده.. كيف يسمح له أن يقبض مثل هذه الأرواح وهى ورود الحياة والعيون الصغيرة لمياهها العذبة .. الأنوار الشاحبة التى تضيىء للعابرين خطوهم فى الظلمات

المكدسة .. ثمة عشق غريب بين الموت والحياة، أو قل مطاردة .. بين الخير والشر، القبح والجمال .. النور والظلمة، كل منهما يفتش عن الآخر ليقهره، الصراع مستمر والصفحات تتوالى .. والإنسان فى أغلب الأحوال هو الذى تدهسه سنابك المتحاربين وعجلاتهم الأسطورية .

رسبت .. ياه .. كم هو مرعب هذا الرسوب! ..

حلقت شعر رأسى تماما ولزمت غرفة السطح .. امتنعت عن الخروج مهما كان السبب ، قاومت رغبتى فى رؤية كريمة، وجدت أنسى فى القراءة ومتابعة حياة الحمام وطباعه وتأملت الأرانب البيضاء، أقبلت على زراعة السطح بالورود والنباتات .. حولته إلى حديقة تستكمل زينتها بالموسيقى الكلاسيكية .. كما تسلل إلىّ عبدالحليم بنبرة صوته الآسرة، وجمال الكلمات التى يختارها والألحان التى تحمل تلك الكلمات وتطير ثم تحط على قلوبنا .. أهواك .. بتلومونى ليه .. أسمر يا أسمرانى .. يا جمال يا حبيب الملايين .. احنا الشعب .. فى يوم فى شهر فى سنة تهدى الجراح وتنام وعمر جرحى أنا أطول من الايام ..

أغانى كثيرة رافقت شبابى، ومضت توقع على كل صفحة وكل يوم وكل شعور بتوقيعها بما يلائم أعماقى وشجونى .. تتابعت أفلامه لتكمل المنظومة الفنية والإنسانية التى تعلمنا الحب وتعمق الاحساس وتجدد الأمل .. تساءلت كثيرا .. ماذا كان يمكن أن يكون شكل هذه الأيام بدون عبدالحليم وذلك الحزن الذى يتمشى فى عينيه، وذلك الصوت الفريد المحمل بكل أوجاع المصريين وأشواقهم وأحلامهم .

نسيت أن تذكر شيئا عن دورانك واثنين من زملائك حول الوجه البحرى مشيـ على الأقدام .. من بنها إلى شبلنجة ومنيا القمح فالزقازيق ثم القصاصين فالتل الكبير والاسماعيلية، بورسعيد ودمياط إلى دمنهور والاسكندرية ثم دمنهور فطنطا وبركة السبع وشبين الكوم والباجور وتلا وقويسنا .. كانت أيام .

وبعد عودتك مباشرة بلغك نبأ انهيار الوحدة المصرية السورية .. وهكذا تعانقت المراهقة الخاصة والمراهقة العامة. فقد كنت تعيش مراهقتك . وكانت مصر تعيش مراهقتها، يسرى فيكما معا نسغ الشباب والتطلع والحب مضمخا بالاندفاع المحموم والأمل المتوهج لاقتناص المستقبل الجميل . ولكنك رسبت .. وهي.

كنت تقول دائما

– أقنعة الأيام لاتنتهي .. تطلع عليك بالوجه المشرق الواعد وتمد يدها الناعمة إليك فتستسلم للأماني، ثم تستبدل بالقناع الباسم آخر شرسا وغاضبا وذا أنياب مثل دراكيولا .. وعندئذ تختلف ردود الأفعال .

عبدالناصر

منذ لكزة أخي عام ١٩٥٤ تصاعد اهتمامي بعبدالناصر ، وتما إعجابي به بشكل مطرد .. الأيام تتوالى والأحداث تتفجر ، وهو كالفدائي يقفز فوق حقول الألغام ، يكتسب كل يوم أرضا جديدة ، يفتح الآفاق ويوقظ شعوبا وحكومات من سبات عميق .

قرأت مبكراً كتابه «فلسفة الثورة» .. تغلغل في عقلي الكثير من أفكاره تمنيت أن ألقاه ولو مرة .. هيمنت هذه الأمنية على تفكيري حتى إنها راودتني في الأحلام فرأيته يسلم عليَّ ، ومرة راكبا فرساً أشهب صاعداً فوق جبل غير منظور حتى يختفي خلف الغمام ، وفي مرة سمعت طرقاً على الباب ، ولما فتحته طالعني في الظلمة رجل فارع الطول ، ضخم البنيان .. حدقت فيه ، أدركت أنه الرجل ، لكنه مغبر الوجه ، ممزق الملابس ، دعوته للدخول ولحق بي والدي فرحب به ، قدم له جلبابا نظيفاً وأصر على أن يستحم .. رفض الطعام واكتفى بالشاي والسجائر .

حكى عن جنود حمر على رؤوسهم ريش ، اختطفوه من مخبأه السري فقد وشى به أحد زملائه وسحلوه في الغابة ، لما أيقنوا بموته تركوه وكان مغشيا عليه ، ثم تسلل عائدا .. بحث عن القمر في السماء وكان متألقاً في أول المساء ، فلم يعثر له على أثر .. ظل يمشي على غير هدى حتى وجد نفسه أمام بيتنا .

قال

– رغم بيوت كثيرة حولكم ، إلا أن بابكم كان يشع منه ضوء جاذب .

تمدد الرجل ونام ، بقيت إلى جواره أتأمله ، كانت ذراعاه تخرجان من

كمي جلباب أبي .. ساقاه الطويلتان كانت عليهما خطوط غائرة من الجروح ، قلبه يدق بعنف كطبل ، تتأثر به كل أعضاء جسده المحموم ، بعد غفوة خاطفة عند الفجر لم أجده وكان الجلباب مكوما ، وكأنه يتأهب للإجابة على الأسئلة .

ظل حلم لقائه هاجساً ملازما لروحي ، ولم يعد لي حلم آخر ، أو فلنقل كان في مقدمة الأماني ، حتى أن اجتهادي بالدراسة كان وسيلة من الوسائل التي فكرت فيها للقائه .. إذا أحرزت التفوق سوف أسلم عليه في عيد العلم.

هاهو الأمل يقترب عندما قررت الحكومة في عام ١٩٥٩ الاحتفال بذكرى الثورة في يوليو ، بمشاركة شباب المحافظات ، وتم اختياري ضمن أربعين طالب ثانوياً يمثلون محافظة القليوبية وأمكنني رؤيته وأنا أمر أمامه . وقف مهيبا يحيي الشباب الذين يضع فيهم كل آماله لمقبل الأيام . بدا لي كعمود ضخم من أعمدة معبد فرعوني فسيح . هل تمضي الحياة دون هذه الأعمدة؟!

رأيته على محطة سكة حديد بنها وأنا أخطب في الجماهير مرحبا به نيابة عن المدرسة أثناء مروره في قطار مكشوف .. كدت ألمس يده لولا الحشود التي هجمت عليّ متجهة إليه وألقت بي بعيداً ، وأنا أهتف بحياة زعيم العرب وإن كنت لا أرى غير أقدام العابرين فوقي .

قوي الأمل في لقائه عندما ملأني الشعور بأني سأكون أول الجمهورية في الدبلوم ولكن الأمل تبخر في سهولة غريبة بنفس السهولة التي تسللت بها إسرائيل إلى أراضينا عام ١٩٦٧ .

قبل أن يموت بتسع سنوات بالضبط في ٢٨ سبتمبر عام ١٩٦١ حدث الانفصال ، وانشرخ جدار الوحدة . كان الرجل قد تصور أنه ماض بعزم وفلاح في تجميع العرب ومحاربة الاستعمار وتقليص قواعده ومساحات

انتشاره على الأرض ، خاصة فى افريقيا ، وأن الأمة تدنو بثقة من تحقيق أحلامها التى تتمثل فى تحرير فلسطين .. جرح العرب الدائم .. ولقد قطع أشواطاً لا بأس بها على طريق التنمية واللحاق بالعصر .. كان محتشداً بالرغبة المتأججة فى تجاوز عهود التخلف ،يتعجل الثمار التى تلوح بشائرها عن بعد .

مضيت أتأمل مساعيه وملامحه فى الصحف والتليفزيون وجريدة مصر الناطقة التى تعرضها دور السينما قبل كل فيلم .

لاحظت عبوسه ونظراته الزائغة وشروده حتى تصورت كأن حماسته للعمل قد فترت ، وتراجعت إلى حد كبير فورته .. تلبسنى رعب فأرسلت إليه رسالة ، كتبتها عشر مرات ، إلى أن رضيت عنها وقد جاء فيها

السيد الرئيس

تحياتى القلبية وتقديرى البالغ لشخصك الغالى

سامحنى وأنا طالب بدبلوم التجارة الثانوية إذ أتجاسر وأكتب إليك ، لأنى واحد من عشرات الملايين تعلقت بك آمالهم ، فالشعب العربى بكافة طوائفه يثق بك ويدرك أنك مؤهل بعديد المزايا لتحقيق أهدافه ، وكان فضل الله عليك وعلينا عظيما .

لقد لاحظت بعد الانفصال المشئوم أساك واضطراب ملامحك التى تكشف لمحبيك احتقان صدرك بالهم والحزن ، ورجائى ألا تبتئس ولا تستسلم لطرقة الحدث الصادم ، فنهاية العالم ليست غداً ، وقد خلقت التجارب للاعتبار ، والابتلاءات دروس ، ولا تتوقف الحياة إثر الكبوات ، وما حدث لايتعين أن يؤثر على طموحاتك للأمة ، لأن الأسى والإحساس العارم بالخسران قد يزلزل الفكر ويغيم الرؤية ، ومن ثم يهدد الزورق الذى يخوض فى بحار عالية وأمواج عاتية .

إن الجماهير التى سلمت لك قلوبها وعقولها تنتظر الخطوة التالية ، فسر

على بركة الله وتطلع إلى الشمس كعادتك ، واقبس منها الدفء والنور ، وواصل حريك من أجل المستقبل ، ونحن جميعاً معك وأمامك ، ربت لنا يداً إلهية تنتشلنا من وهدة الظلم والتخلف . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ابنكم المحب

فؤاد محمود قنديل

في ١٩٦١/١١/٢٧

أرسلت الخطاب

وكعادتي نسيت الموضوع ، عازماً . أن أكون على رأس الناجحين هذا العام ، وفي يوم ٢٣ ديسمبر (عيد النصر) وصلني على منزلنا بشارع كمال في بنها من رئاسة الجمهورية ، مكتب الرئيس .. بدا واضحا أن المظروف تم فتحه عدة مرات .. تذكرت رسالتي التي لم أتوقع على الاطلاق أن يرد عليها، وأعلم أنه يتلقى يومياً الآلاف مثلها .

رئاسة الجمهورية في ١٩٦١/١٢/١٦

ولدنا المحترم الاستاذ /

تحية طيبة وبعد

لقد كان لكلماتك تأثير كبير عليّ ، وكما نبعت من قلبك نفذت إلى قلبي وأسهمت مع غيرها في تشجيعي على تجاوز الموقف التعس والاستعداد لما هو آت ، فمازالت أوجه القصور كثيرة والتحديات أكثر .

لكن ألست معي (ظلت هذه الجملة بالذات .. ألست معي .. لا تفارقني في ليل أو نهار) . في أن السنوات القادمة لن ترحم الدول الصغيرة ، ولن يكون هناك وجود حقيقي يحفظ كرامة هذه الدول وشعوبها ، وأن أحداثاً جساماً ستهز العالم وتغربله ، فلا يبقى متمتعاً بالحياة . إلا التكتلات الكبرى والدول التي تملك مقدرات استقلالها وعوامل حمايتها في مواجهة العواصف .

إن الآمال معقودة على شباب العروبة الناهض وأنت منهم ، فكونوا على قلب رجل واحد مسلحين بالعلم والأخلاق من أجل دولة عربية كبرى موحدة وقادرة على أن تفرض كلمتها على أرضها الممتدة من المحيط إلى الخليج .

وتقبل عميق تقديرى وشكرى

المخلص

جمال عبدالناصر

بعد أيام زارتنا خالتى التى تقيم بشبرا وعلمنا منها أن شقيق زوجها أعتقل منذ شهور ولا يعرفون عنه شيئا .. طعننى الخبر لأن الأستاذ طلبة مثقف كبير ويسارى راسخ ، ووطنى من طراز رفيع لايعرف أى شىء فى الحياة إلا تاريخ مصر وحضارتها والسياسة الدولية ومعاناة الشعب المصرى والمستقبل .. كنت أدهش لحضور ذهنه الذى لايتوقف عن إنتاج الأفكار .. ماكينة بشرية هدفها تغيير العالم .. كيف يعتقل ؟.. تذكرت أنى علمت من صديق يسكن الزيتون أن والده اعتقل منذ عام أو يزيد وأنه الآن فى الواحات ولايستطيع أحد مهما حاول أن يصل إليه .. تصل رسائل فى علب الكبريت والسجائر ، وفى أوراق صغيرة سافرت من الواحات إلى القاهرة فى مؤخرة جندى طمأنتهم على الأب السجين .

هل كان ذلك بسبب رغبة الاتحاد السوفيتى فى نشر الاتجاه الشيوعى فى المنطقة العربية ، وتصدى عبدالناصر لها ؟.. لقد قرأت شيئا من هذا القبيل .. أكده أخى ..

عبدالناصر قال فى خطبه أكثر من مرة أنه لن يقبل أبدا أن يتحول العرب إلى دول شيوعية .. تساءلت .. هل اعتقال الشيوعيين رسالة إلى الروس ؟. الواضح أن عبدالناصر كان يعشق بلاده أكثر من اللازم ، وأنه يحرص على أحلامه لها إلى درجة التوتر ، ويبالغ فى حماية هذه الاحلام حتى من الشعب نفسه .. إنه كالأم التى تعبد أبناءها حتى أنها - كما فعلت أمى يوما - تاكل لحمهم إذا لم يكونوا كما تتمنى لهم .. الرجل يعيش فى رعب خوفا على

الكتاكيت .. يخاف عليها من الإقطاعيين والأمريكيين والروس .. ومن زملائه ومن نفسه .. يخاف على العرب من العرب ، ومن الديمقراطية التى يمكن أن تفتح النوافذ للرياح العاتية .

أدرك بالتدريج أن مايفكر فيه عبدالناصر ليس بالضرورة مايفكر فيه بقية الضباط الأحرار .. والأفكار لايمكن زرعها أو شتلها فى رؤوس كبرت أعمارها وتجاوزت مرحلة الغرس .. لا أحسب من بينهم من يدرك أهمية دوائر عبدالناصر .. دائرة العالم العربى والإسلامى والدائرة الأفريقية ودائرة البحر المتوسط .

لا أحسب أحداً إلا النادر يدرك أهدافه التى تتمثل فى وحدة عربية شاملة تملك قرارها ومصيرها وتأثيرها .. لا أحسب أحدا يدرك مثله الخطر الأمريكى الذى سيجتاح العالم وتعد له المخابرات الأمريكية بدأب .

لا أحسب أحداً يدرك أمل الرجل فى اجتثاث جذور الاستعمار من كل أنحاء العالم ، ومن يدرك ذلك غير مستعد له ولا راض .. هل هناك من .. يدرك وعى عبدالناصر التاريخى العميق بأن حماية أى شبر من تراب أى دولة عربية لايكون إلا بحماية كل التراب العربى ، واستقلال دولة لا قيمة له مادامت المجاورة لها محتلة ؟

المسألة معقدة جداً ، أهداف هائلة وإمكانات مادية جيدة جداً ، لكن الثروة البشرية متواضعة والمقاومة الداخلية والخارجية متعاظمة .. التربص والمؤامرات لا تتوقف .. إنه المخاض العظيم يتأهب لميلاد عربى يعيد المجد القديم .. ربما يحتاج عقوداً .. لكن البشائر يجب أن تتجلى فى السنوات القادمة ..

لم تقل أن هذا كلام أخيك فوزى .. رحمة الله عليه ..

نعم إنها كلماته وقناعاتى وقناعات أمى وأبى .

عامل إضاءة

عينت محاسباً باستديو مصر فى أكتوبر ١٩٦٢ ، وكم للشهر المميز من أياد .. فوجئت أثناء سهرى بالليل لإعداد الميزانية فى منتصف عام ١٩٦٤ بأحد الخفراء يستدعينى للقاء ضباط من رئاسة الجمهورية .. دهشت وأسرعت متسائلا عن السبب .. قال أكبرهم رتبة :

– نريد ستة عمال إضاءة وأدواتهم لعمل يتطلب ليلة واحدة فى الرئاسة .

هذا ليس عملى كمحاسب ، لكن الأستاذ صلاح السيسى المشرف على حركة الإنتاج بالأستديو ، كان قد استأذن للانصراف مبكرا بسبب مرض زوجته ، وطلب منى أن أحل محله فى استقبال أى طلبات عمل أو حجز بلاتوه أو تأجير معدات التصوير والإضاءة ، أو حجز قاعة التسجيل الصوتى «الأوديتوريم» .

قدم لى الضابط خطاباً رسمياً وطلب تجهيز البطاقات الشخصية للعمال وسيمر بعد ثلاثة أيام لاستلامها .. سألته عن طبيعة المهمة فرفض الكشف عنها .. قلت له .

– لابد من ذلك حتى نحدد نوع العمال والبروجيكتورات .

فلومنى كثيراً وراوغ ، لكننى كنت حريصا على أن أحطم السرية التى أرى أنها أحيانا زائدة وبلا مبرر .. استطعت فى النهاية ارغامه على التصريح .

– سيقيم شخص مهم جداً حفلا فى منزل تابع للرئاسة يحييه بعض المطربين .

لم أرد أن أضغط أكثر من هذا ، فما حصلت عليه يفى بالغرض ، بل

بكشف أغلب جوانب الخبر . سجلت الطلب وتركته مع كلمة منى لصلاح السيسى ، أوضح فيها ما اتفقنا عليه حتى يتصرف فور حضوره فى الصباح الباكر ؛ ونسيت الموضوع .

بينما كنت مغموراً فى الدفاتر والحسابات وكشوف البنك وضبط الأرقام اقتحمنى موضوع الحفل الرئاسى ، حكيت عنه لزميلى السمين خفيف الظل عفيفى الذى تزوج من الممثلة السمينة جدا «أنجيل» ذات القلب الطيب .. قال:

– يحتاجون العمال لإضاءة المسرح مادام هناك مطربون .

– أنا أتساءل عن المنزل التابع للرئاسة وشخص مهم جداً .

– لابد إنه الرئيس .

– هل يقيم الرئيس حفلات فى بيته ؟

– مسألة اجتماعية وليست سياسية .

قال الحناوى وعفيفى فى نفس واحد .

– لماذا لايقيم الحفل فى أكبر قاعات البلد ؟

قال أحمد أفكار قبل أن يقفز متشقلباً ليمارس هوايته فى السير على يديه :

– تعرفون الرئيس ، لا يحب المظهرية .

ظهر المدير فجأة ، ولم يكن يظهر بالليل أبدا .. اندمجنا فى العمل واختفى تماما الحديث عن الرئاسة ، ولم يعد إلى رؤوسنا حتى بعد ذهاب المدير .

طال بنا السهر إلى ما قبل الفجر ، فقرر العزاب منا المبيت فى حجرات الممثلين حتى الصباح . اخترت ممثلة جميلة ومشهورة .

الحجرة ضيقة لكنها مجهزة بكل شيء تسريحة كبيرة ، لمبات ركنية . أدوات مكياج وعطور ، صورها على كل الجدران ، سرير طرى عليه ملاءة

هر بالورود البرتقالية .. شفاه ملتهبة تلتف حول المرآة .. شبشب صغير زين بالخرز الأحمر والأصفر فوق كسوة من الفرو ، البلاط الصغير بمبى لغرفة تفوح بالحنان والحب ، الحمام الصغير جدا بللورة من الضوء الناعم . دعتنى الصابونة للاغتسال فلبيت .. أنت يارب خلقت النسـ ء أولا وتركت لهن خلق الجمال ، هاهى الممثلة الفاتنة تبتسم لى عبر صورتها الكبيرة وتغمرنى أنوثتها الضارية .

قلت لها :

تصبحى على خير يا قمر .

تصورت بعد أن ارتميت على السرير ، وأنا مغمور فيها وممتلىء بحضورها البهيج أنى سأحلم بها ، لكنى حلمت بعبدالناصر .. كنت مع والدى نجلس فى صالون بيته فى منشية البكرى ، وأبى يطلب يد ابنته لى ، عبدالناصر يبتسم مشجعا ، وهو يقول لأبى :

يخيل لى أننى رأيتك من قبل .

قال والدى . لم أتشرف ياريس .

قال الرئيس وهو يودعنا .

– ليتنا نلتقى مرة أخرى ، فربما عثرنا على أسباب جديدة لمزيد من التعارف .

وضع كفه الكبيرة على كتفى وقال فى حنان .

– ربنا يوفقك .

تمنيت أن أظل هكذا أنظر إليه ، ويظل ماضيـ فى حديثه ، لكنى صحوت، فإذا الشمس فى الغرفة والرجل فى رأسى .

بعد أن اغتسلت وصببت علىّ من كل العطور وتأملت نفسى فى المرآه البيضاوية الكبيرة معلقة فى إطارها صور الممثلة ، صحبة الغرفة عاربة الكتفين ووجهها الفاتن تشرق عليه ابتسامة ملهمة .. وقبل أن أقول لها

صباح الفل.. نفذت إلى رأسي فجأة فكرة أن أكون أحد العمال الستة .. إنها فرصتي الأكيدة ، وهي حلمي الذي ظل يلاحقني على مدى عشر سنوات .. سرعان ماصفعني المانع الرئيسي .. البطاقة الشخصية .

كنت أجلس بين زملائي جسداً فقط والعقل في سفر دائم بحثاً عن الحل . لم أتقدم خطوة في إنجاز المطلوب مني .

كان المدير قد كلفني به ، إلى أن خطر ببالي اسم زميل كان يعمل مساعداً للشيطان في يوم من الأيام ثم اعتزل بعد زواجه من سيدة جميلة جداً وتاب على يديها .

انتظرته على أحر من الجمر حتى الثالثة ، فلم يحضر . انطلقت إليه في بيته على ترعة المريوطية قريبا من الأستوديو ، فيلا صغيرة اشتراها من أجل الجميلة ، وإن كانت محاطة بالأحراش والبوص . يفضي إليها طريق ترابي .

اشترى لها كلبا بوليسيا ضخما اعتزل هو الآخر الخدمة الرسمية .. اليوم جمعة ، لكنه كان يجب أن يحضر .. نحن نقيم في معسكر للميزانية كما قال أحمد المصري المدير العام .. أسعدني زماني موجدته .

كان لابد من الوصول إليه لأنه يعرف تقريبا كل ضباط الشرطة ومعظم لصوص القاهرة والجيزة وعدداً كبيراً من المحتالين وتجار المخدرات ، وعدداً غير قليل من القوادين والمزورين .

سألته عن الشخص الذي يزور البطاقات .. سألني عن السبب . لحقت لساني في آخر لحظة .

- صديق يود أن يسافر إلى بلد عربية ولابد من تغيير المهنة .

قال

- يد رجب تتلف في حرير ، عليه دماغ عجب ، وفنان بدون نظير .. إذا قصدته في جواز أمريكي عليه صورة كينيدي أو أيزنهاور كان عندك خلال

٢٤ ساعة .. أم أنك تريده جواز روسي .

- أين أجده ؟

- أخوه وجدي يعمل في سان سوسي .

- أعرف وجدي .

سان سوسي مقهى جميل وأنيق له حديقة خلف عمر أفندي بميدان الجيزة ويقع أمام بيتي مباشرة . كنت من هواة الجلوس فيه ، بعد تركي مقهى الحاج عبدالله الذي رأيت فيه الحجاوي وأنور المعداوي ، والقط وسمير ، وعدم إعجابي بندوة محفوظ في صفية حلمي وبعد رحيل العقاد الذي حرصت على ندوته .

أسرعت إلى هناك ، لم أجده .. انتظرته ساعتين ثم علمت أنه تورط في مشاجرة ثقيلة أكل فيها ضرباً مبرحاً . وهو الآن في مستشفى أم المصريين ذهبت إليه ومعي كيس به بعض العصائر ، كان مكسور الذراع الأيمن والساق اليمنى ، ووجهه منقوش ببقع زرقاء ، لكنه في حالة معنوية جيدة .. قال إنه لم يتوقع أن أزوره ، فأسرفت في الحديث عن أفضاله وخدماته الكثيرة لي في المقهى .. انطلق يحكي عما فعله في المعركة ويصف لي كيف حطم عظام خمسة من الرجال ، بينهم ضابط شرطة سابق .. أخيرا حصلت على عنوان أخيه في وادي حوف .

البيت مغلق . سألت الجيران ، قالوا :

- زوجته تزور أمها في عزبة النخل ولابد ستعود .

لم ترجع إلى بيتها ومعها أولادها إلا منتصف الليل ، سألتها عن زوجها .. سافر إلى نجع حمادي صباح اليوم لوفاة زوج أخته .. خطر ببالي وجدي الذي أنقذه الضرب من سفر طويل .. كدت أضحك .. سألتها عن موعد عودته ، قالت ، ليس قبل أربعة أيام . أبلغتها بما جرى لوجدي .

خارج البيت فوق الرصيف وقد استبد بي الغيظ .. غدا مساء ،

سيحضر رجال الرئاسة لاستلام صور البطاقات .. في الصباح رجوت صلاح السيسي أن يضمني إلى عمال الإضاءة .. رفض بشدة وقد أصابه الذعر .. قلت له :

دعني أتفق مع مرتضى أبوعلم رئيس عمال الإضاءة .

وافق وهو مطمئن إلى أن مرتضى سيرفض ، أسرعت بشراء «هوايت هورس» محترمة ودخلت بها على مرتضى .. لم يكن يستطيع أن يرى أو يسمع أو يتكلم أو يفهم أو يفكر إلا بعد أن يتجرع زجاجة ، وكان يذكرني دائما بالممثل الأمريكي لي مارفن في فيلم «كات بيللو» السكير الدائم الذي يجيد التصويب بدرجة مذهلة ، إذا شرب ، ولا يملك القدرة على صلب طوله دون ذلك .

وافق مرتضى بعد عذاب وعاد صلاح يرفض ، عدت أرجوه فأبى .. كان يحبني جداً ، لكن الإنسان - كما قال - لايعيش مرتين .. هددني بإبلاغ طلبي لأحمد المصري .. عدت أرجوه .. تحت إلحاحي المزعج ترك المكتب مجاملة لي ، وبإدعاء المرض انصرف تماماً من الأستوديو .. ظل قلبي يدق بشكل غير عادي إلى أن حضر وفد الرئاسة فبعثت لهم بغيري .. سلمهم صور البطاقات ومضوا بها واعدين بالاتصال لتحديد موعد حضور السيارة التي ستنقل العمال والمعدات . كنت قد سهرت ليلة كاملة أعبث بصورتي في البطاقة ، حتى أدركت أني يمكن أن أكون من عتاة المزورين .

ذهبنا في اليوم الموعود ، كان حفلاً بمناسبة زواج هدى عبدالناصر بعريسها حاتم صادق .. سلمني مرتضى أصغر بروجيكتور قوته ٢ك .. أضأنا المسرح الذي أعده وصمم ديكوراته المخرج الفنان شادي عبدالسلام وغنت عليه أم كلثوم وعبدالوهاب وعبدالحليم ، لم أكن أسمع شيئاً ولا أرى إلا هو حتى وأنا ظهري تجاهه .. كل شيء كان ضبابيا كأني في حلم ، حتى أصوات المطربين الذين أحبهم كانت تأتي من بعيد جدا ، كان الرئيس

يجلس بين ضيوفه فى حديقة منزله التى أقيم فيها المسرح .. أمكننى معرفة معظم الضيوف .. كانوا من أعضاء مجلس قيادة الثورة ومعهم آخرون . علمت أن شادى سلم زجاجة «بلاك آند هوايت» لمرتضى فحمدت الله .

ثار ضدى مرتضى عدة مرات . وحمّر لى عينيه حتى اضطر للجلوس ورائى مباشرة ، ليمنعنى من الدوران بالبروجيكتور نحو الرئيس وتبتعد الإضاءة عن المسرح .. يلطم مرتضى وجهه ويقول وهو يأكل أسنانه .

– أنا عارف نفسى كويس .. أصلى ابن كلب .. غلطت غلطة عمرى كله وسوف أدفع الثمن .. أستر يارب .. أرجوك يارب أترك كل اللى فى إيدك وخليك معايا .

لم أكن أود أن تضيع دقيقة واحدة لا أتأمل خلالها الرجل الذى اختاره الله لتحريك راكد الأمة العربية .. الرجل الذى أرسل لى خطاباً رقيقاً ورائعاً يقول لى فيه : «ألست معى» وهو يعلم أنى طالب .

– ألست معى ؟

– معك ياسيدى ، والله معك وأُحسُّ بك .

بعد انتهاء الحفل أخذونا إلى جانب متوار من الحديقة ووضعوا أمامنا طعاما هجم عليه العمال ، لم أكن متحمسا للطعام ولم أكن راضيا عن منظرنا .

بعد دقائق جاء من ينادينا قائلاً :

الرئيس يسأل عنكم ويريدكم معه على المائدة ، ارتعد جسدى وتصاعدت مشاعرى إلى عيونى وسرعان ما ترقرق الدمع الذى كنت أحبسه .

ظلت عيونى عليه .. الكل كان يأكل إلانا .. أنا وهو .. كان كل شىء ضبابيا وأنا فى نصف وعى .. أحدق فى الرجل الذى منذ عشرين عاماً على الأقل جمع الضباط وشارك فى حرب فلسطين واستنفر الصحافة ودعمها بالأسرار ثم ثار مع الثوار .. الرجل الذى جاء من أجل الغلابة فى العالم

أجمع .. بقيت مجذوبا ومدلها ولم أنتبه لحالي إلا بعد أن حملتنا سيارات الرئاسة إلى بيوتنا . تذكرت أخيرا أن كل شيء تقريبا مر بسلام . اندفعت وراء أمنيتي وكان يمكن أن أتسبب في إيذاء عدد كبير من الناس .. هل هي سذاجة أم حماقة . ثقة زائدة . اعتماد مبالغ فيه على عناية الله . أم حسن نية أم قدر ؟ أيقنت إنها في حدها الأدنى حماقة لها سوابق في حياتي ولن أعدم مثيلها في المستقبل . لسبب بسيط هو أني غير مستعد لمقاومتها لأن هدفي كان عملاقاً وتاريخيا لا تمنعني عن بلوغه أعتى العقبات .

بعد شهور دعاني المدير العام وسألني عن حقيقة انضمامي لعمال الإضاءة في حفل الرئيس . أنكرت بشدة في شبه صراخ :

من المجنون الذي قال ذلك ؟.. كان قد سبقني السيسي إلى نفس الرد . الخبر وصل إليه من أحد العمال المقربين لمرتضى الذي يشرب سبرتو بدلا من الأصناف العالية .

دهشت لأن المدير العام أمر بوقف حوافزي المالية ثلاثة أشهر فغضبت . وحاولت تجنبه . وإذا دعاني لا أذهب إليه متعللا بأي سبب إلى أن ضقت بالقلس .. فكتبت له قصيدة أطلب فيها بكل إباء إعادة حوافزي مؤكدا أنني لم أعهد فيه الظلم . فكتب على القصيدة :

من سوء حظك . أنا أكره الشعر . ولو كتبتها بالنثر لوافقت فورا . فلم أكتب شيئا وبقيت فترة مُعْرِضاً عنه .

هنـــد

هل كان الكتاب الذى لا تفارقه عيناها هو الذى لفت نظرى إليها ؟

هل كان السمت الهادئ الوديع ؟ .. هل كانت الملامح الجميلة الدقيقة ؟

أم تراها كـانت العـيـون السـوداء ونظراتهـا الخـاطفـة الناطقـة بقـوة شخصيتها واعتدادها بنفسها ؟

أم لعله انصرافها عن كل من فى أتوبيس الشركة. حريصة على ألا تتابع ما يجرى من حوارات وفكاهات وغناء وصـخب وكـأنهـا مـحـرومـة من نعـمـة السمع، مكتفية فى النادر بإرسال نظراتها إلى خارج النافذة لتأمل بعض المشاهد العابرة، مؤثرة الجلوس فى المقعد الأيمن فى الصف الثانى بشكل دائم حتى لقد عرف بها وعرفت به .. كل ذلك اجتذبنى إليها فرحت أرقبها وأحاول اختـلاس النظر لمعرفة أسمـاء الكتب التى تطالعـها ومن ثم أدرك نوعية اهتمامها وصولا إلى مدى ثقافتها .

لقد شكلت لنفسها – ربما دون قصد – عالما غامضا ولافتا .. عالما غريبا بالقياس إلى ما حولها وإلى المعتاد والسائد، يغرى بالاقتراب منه ومحاولة كشف أسراره واجتياز أسواره .. لكن الأمر جاء مختلفا .

كان شاغلى فى البداية الإجابة على السؤال البوابة .. هل اهتم غيرى بها وماذا كانت النتيجة ؟.. ربما لم يتلق منها ما يشجع وربما سمع ما لا يرضيه، فعاد أدراجه دون تكرار التجربة .. لا تبدو شرسة لكنها بالتأكيد تقيم جدارا سميكا وعازلا يحول دون اقتحام محارتها الرقيقة .

حاولت أن أحفر معالم وجهها فى ذاكرتى .. الرموش السوداء الطويلة .. الشعر الكثيف الأسود المتدلى خلف ظهرها كنهر يهبط بعنفوان من فوق

ربوة نضرة ومشرقة .. الفم الجميل الأحمر والذقن الصغيرة .. تلك الهالة من النور التى لا أعرف مصدرها .. بقعة من الجمال معزولة تماما عن الآخرين كأنها ليست بينهم، وكأنهم اعتادوا نسيانها أو تجنبها .

مع أول أيام تعيينها بالشركة صعدت إلى الأتوبيس واجتازت المقعد الذى يجعلها فى مهب الريح .. أى ريح، أخرجت الكتاب ودخلت فى شرنقته ولم تخرج إلا للنزول .. أعجبتنى كتبها .. أشعار نزار قبانى، أشعار طاغور . سونيتات شكسبير .. قصص إدريس وتشيكوف، أساطير الحب والجمال عند الاغريق، أشعار حافظ الشيرازى وناظم حكمت .. مسرحيات لوركا ودورينمات، التقطت عنوان كتاب «كفاحى» لهتلر وكتابا عن قصة الميكروب وأصل الأنواع .. دهشت وحاولت إعادة تقييم اهتماماتها وتحديد المجال الأثير لديها .. سلمت تماما بأنها قارئة نهمة ، الكتاب لا تحمله معها أكثر من يومين إلا فى حالات نادرة .

تحينت الفرصة للجلوس إلى جانبها .. اشتقت إلى من أحاوره حول الأدب والفكر .. شغلنى عملى فى حسابات استديو مصر .. وكان متراكما منذ سنوات .. الدولة تتأهب لتحويله إلى قطاع عام بعد تصفيته، بحصر أصوله ومديونياته.

هجمت دون مقدمات.

- ما رأيك فى شعر نزار ؟

اضطربت يدها التى تحمل الكتاب وكاد يسقط، أسرعت نظراتها إلى الشارع ثم قالت بصوت شبه ضائع : الجيدون قلة.

قلت على الفور : هذه ليست إجابة .

عادت تنظر إلى الشارع .. لابد أنها غير مستعدة للتواصل مع أحد .. هناك جدار عازل أقامته فيما يبدو بينها وبين الناس، مع أنهم زملاء .. فى مرة رأيت شخصا يجلس فى مقعدها، ظلت واقفة أمامه. تنظر إليه فى هدوء

عديد إلى أن أدرك أنه مقعدها، فنهض مبتعداً .

تابعت أسئلتي

– هل ترين أنه شاعر حب أو سياسة ؟

لم ترد .. قررت ألا أتركها .. قلت :

– أحياناً أحس أنه يتكلف وأن شعره لا يصدر عن حب حقيقي .. إنه صانع محترف .

قالت :

– هذا صحيح إلى حد كبير . ولكنه يستولى على القلوب .

قلت : لأنه بسيط ومختلف.

سألتها عن رأيها في توفيق الحكيم، قالت إنها لم تقرأه جيدا بسبب ميله إلى المسرح، قلت إن مسرحه يصلح للقراءة، ولديه كتب أخرى كثيرة ممتعة فكريا وفنيا، مثل عودة الروح وبراسكا أو مشكلة الحكم والرباط المقدس وعصفور من الشرق .

قالت :

– مظهريته تعمل ضده.

سعدت لكسر محارتها الحديدية ، قلت :

– قشرة خارجية لا تأثير لها .

كأنها لامت نفسها على التواصل، فعادت إلى الشارع .. سألتها :

– والعقاد ؟

– لا أحتمله .. يتصور أن التعقيد عبقرية . ويبدو أن اسمه من كتابته.

– ليس تعقيدا ، ولكنه محاولة لمعرفة الأعماق، ولذلك فالتعبير لديه مركب أحيانا .

– ما يطرحه لا يجذبني .

– سأقول له ذلك .

ابتسمت ابتسامة مشوبة بالرعب.

– أحقا ؟

– أذهب إلى ندوته صباح كل جمعة .. سأخبره برأيك .

– لن يهمه.

– بل سيهمه وسوف يسألني عنك. عندئذ سأقول له كل شئ .

أخيرا رفعت وجهها إليّ ونظرت في عيني .. وسألتني وهي تكاد ترتعد .

– كل شئ ؟

– نعم .

– كل شئ عن ماذا ؟

– عنك .

اكتشفت أنني أحدق فيها. فاغضت. بينما حاولت أصابعها الرقيقة المحطوطة على الكتاب المغلق أن تسيطر على اضطرابها .

– عني ؟

– نعم .

– وماذا تعرف ؟

– ياه .. الكثير .. سأقول له أنك ..

قاطعتني وهي تنبض .

– تسمح .. لابد أن أنزل هنا .

أسرعت تهبط من الأتوبيس. وأنا على ثقة أننا لم نصل بعد إلى ميدان لاظوغلي الذي تعودت أن تنزل فيه .. لم أنزعج كثيرا لانصرافها. بل كنت سعيدا بالتجربة .. بالاقتحام .. باستدارجها خارج محارتها. وحاولت أن أستعيد ملامحها المنمنمة ووجهها الأبيض وشعرها الأسود الفاحم الطويل وأنا أتابعها. وقد خشيت للحظات أن أكون قد أغضبتها بجسارتي . كانت تعمل مساعدة لمدام هدى في قسم المونتاج.

فوجئت بي في اليوم التالي في حجرة المونتاج . كانت تجلس فيها وحيدة . قالت بحدة : أتقدم .

أعددت نفسي جيدا من الناحية المظهرية لهذا اللقاء .

- جئت لأعتذر عن .

- لا سبب للاعتذار .

- إذن .

- أرجوك .. هذا مكان عمل .

- لكني كنت سخيفا .

- وجودك هنا .

- غير مرحب به .

- مكان عمل وأنا لا أحب .

- أن يلوك أحد سيرتك .

- تمام .

- فهل يمكن أن أتحدث إليك لدقائق ؟

- فرصة أخرى .

تقدمتني نحو الباب .. خرجت وأنا لا أستطيع اخفاء حرجي واضطرابي .. في الوقت نفسه عزمت على ألا أستسلم فهذه الفتاة قوية بشكل مثير .

شرعت في وضع خطط للاقتحام والسيطرة لكني كلما وضعت خطة عدت فمحوتها وفضلت ألا تكون هناك أي خطة. ثم أضع جديدة إذ لا أجد مفرا من الخطط. وسرعان ما أتخلص منها، وهكذا حتى انتهيت إلى قرار أخير وحاسم .. لا داعي لأية خطة ولأمضي على طريق النقرات الصغيرة والحوار القصير، وعدم محاولة الضغط عليها لإقامة علاقة أو تسريع إقامة أي رابطة .. لندع كل شئ للظروف والزمن ولتأتي الأمور بطبيعتها دون لي عنقها .. وكانت في الحقيقة خطة ذات نفس طويل تتناسب مع قوة التحصينات .

فى اليوم التالى أهديتها كتابا للحكيم .. فى مرة أخرى أحضرت لها «العجوز والبحر» لهيمنجواى وتناقشنا حولها، أعجبتنى جدا قدرتها على الغوص فى دلالات النص وإدراك مستوياته، خاصة النصوص الخصبة والملهمة .. كانت تجيد قراءة ما وراء السطور، قالت لى مرة: أتمنى أن أقرأ «المتمرد» لالبير كامى .. بحثت عنه كثيرا فلم أوفق .. غبت يومين عن العمل وفى الثالث حملته إليها .. سألتنى إذا كنت أرغب فى كوب من الشاى، وافقت طبعا ودهشت لأنها لم تنزعج مثل ما فعلت فى المرة السابقة .. قلت لها: إننى لا أود تعطيلها.

- أنهيت عملى بالأمس وأنتظر مدام هدى لنبدأ فى الفيلم الجديد.

كانت أكثر أعمالها للأفلام التسجيلية وقليل من الروائية.

قلت: لا أود أن يسئ أحد فهم وجودى هنا.

قالت: لا أسمح لأحد أن يسئ الفهم ..

تحدثنا طويلا وأمكننى أن استدرجها للضحك، فضحكت وفاضت وتدفقت .. حضرت هدى وهى سيدة يوغسلافية تجيد العربية وقد أسلمت وتزوجت من مصرى .. تخلى عنها ومات، لم ترد ترك مصر .. كانت دائما تقول مصر وطنها الأول .. قدمتنى لها هند. وفوجئت بترحيب هدى التى لم أكن قد رأيتها غير مرتين دون حوار.

قالت هدى: حدثتنى هند عنك كثيرا ..

اندفعت هند: يا مدام هدى لا تجامليه على حسابى .. أنا لم أحدثك عنه لا كثيرا ولا قليلا .. قلت فقط إن زميلا فى الحسابات له اهتمامات ثقافية .. فقط .. قالت هدى: فلا .. فلا.

اشتقت للحب .. تلهفت على الأنثى بعد أن غرق الرسوب بينى وبين كريمة، وغضب أمى الذى كان صامتا لكنه يحرق، شغلتنى الدراسة ثم العمل والسياسة والأدب. لكن القلب عودنى أن يشكو بسرعة من الحرمان.

ما قيمة الحياة دون حب .. أى حب . بشرط أن يكون كبيرا وعميقا .

تابعت تمصير البنوك والشركات الأجنبية والنزاعات العربية خاصة بين مصر والعراق إبان حكم عبدالكريم قاسم .. ثم القوانين الإشتراكية يوليو ١٩٦١ والانفصال والميثاق الوطني ١٩٦٢ ثم ثورة اليمن ومساندة مصر لها .. كان يتولى شئونها السياسية أنور السادات وشئونها العسكرية أنور القاضي بعد رفض عبدالناصر أن يتولاها عبدالحكيم عامر .. كان غاضبا من تجاوزات صديقه الأعز حكيم في سوريا .

تعقدت في الحياة أمور كثيرة واختلطت الأغصان .. وطالت الأشواك أعناق الورود.. نبت الصبار في حلوق الياسمين، وإلى جانب ذلك نضج الفتي وابتلته الأقدار ببعض المواقف التي سوته قليلا على سطح ساخن، لكنه كان - ربما دون قصد - حريصا على روح الطفولة البريئة .. رغم ذلك فقد حاول فصم العلاقة بينه وبين الشعر، لم تكن الأيام قادرة على الإلهام، والأحداث كانت عابسة والوجوه لا تعرف القمر .. مالت قراءاتى قليلا إلى الفلسفة لعلها تفسر لي بعض ما يجرى .. اكتشفت نيتشه الرائع، ومضيت معه، ثم جربت كتابة أول قصة عن حرب اليمن بعنوان «الفوج القادم» بسبب تأثرى بمشهد أم كانت تنتظر على محطة القطارات ابنها الجندى الذى لم يعد من اليمن .. لكننى عدت للشعر من أجل هند .. كان ذلك أمرا استثنائيا، فما كان بالإمكان تقديم أشواقى وحنينى إليها على أوراق القصة، وإنما على أجنحة الشعر الشفافة والمشبوبة .

أحببت هندا وتفرغت تقريبا لها بعقلى وقلبى وروحى ووقتى .. بدلت فى كل عاداتى لأجلها .. اهتممت بملابسى لترضى .. واصلت القراءة ليكون بيننا دائما موضوع للمناقشة والتحليل والتامل .. كلما تحاورنا زاد تقديرى لها .. ما أروع عقل المرأة إذا احتشد بالثقافة ثم تالق بالإحساس وسما بالطموح والأمل وحب الحياة !

كم هو ملهم وجه فاتن لفتاة تحبك!، أدركت مبكرا أن قلب المرأة كنز لا تدانيه كنوز الأرض، وعقلها حصان جامح يمكن أن يعبر الأكوان في جسارة، وأن يحول التراب ذهبا والصحراء حدائق .

ألححت في طلب التقدم لأسرتها .. تهربت وماطلت إلى أن قالت : سيرفضك أهلي .. صدمتني كأنها قالت لي : أكرهك ..

عرفت منها أن الأسرة متوسطة، والأب موظف بسيط في الإذاعة، فسألت عن عيوبي التي سترفضني الأسرة بسببها .

قالت : لأنك لا تحمل من الشهادات إلا الدبلوم .

سألتها : هل تريدين أني ..؟

قاطعتني :

– ليس قبل أن تحصل على الليسانس أو البكالوريوس .

– أتقدم ثم ..

– أبدا.

– دعيني أتفاهم معهم .

– أنا أيضا غير موافقة ؟

– هل أنت مجنونة ؟

– نعم .

– لكن .

– هناك فرق هائل بين الدبلوم والبكالوريوس .

– في الثقافة ؟

– بل في الوظيفة وفرص الترقي

– لا يعنيني هذا الهراء .

– أنا يعنيني .

استولى عليَّ غضب مفاجئ وثقيل .. طلبت منها أن نغادر المكان .. على

بابه تركتها، وسرت على قدمي أغذ السير غير متجه إلى أي مكان .. تعودت أن أدفن غضبي في السير وأحيانا العدو لتخليص روحي من توتر أعصابي .. كانت بؤرة غضبي إصرارها وطريقة طرحها الموضوع، كأنه مسألة حياة أو موت ، سرت من كازينو قصر النيل المجاور للكوبري حتى ميدان الجيزة حيث أسكن.

من السهل بالدبلوم أن أدخل كلية التجارة، لكني لا أريدها، أريد الآداب لأدرس اللغة العربية، ولدخول الآداب لابد من الثانوية العامة .. ولابد لمن يريد الحصول عليها من البدء بالسنة الأولى وينجح فيها ثم ينتقل إلى الثانية وهكذا .. يستحيل ، معاناة كبيرة وسقيمة أن أحصل على الليسانس بعد سبع سنوات إذا نجحت كل سنة .. لا مفر إذن من نظام المنازل الذي استخدمه أخي فوزي للقفز فوق سنوات التعليم .

الغريب أنني فوجئت بزميل الطفولة فتحي سرور (ليس رئيس مجلس الشعب) يزورني في اليوم التالي ويقول :

– أطلب منك بإلحاح شيئا لا ترفضه، وأنا اعتمادي عليك بعد الله .

– عيني يا فتحي.

– أنت تعلم أني أذاكر الثانوية منذ تسع سنوات وأرسب

وحلمت منذ أيام أني أخيرا نجحت.

ضحكت :

– في الحلم فقط يا فتحي.

– كنت أنت معي ونجحنا معا.. إذن لابد أن تدرسها معي .

قلت :

– أنا لا أريد أن أدرسها يا فتحي .

– أنت تحب القراءة .. اقرأ كتب الثانوية معي.

كتمت الضحك.

- ابحث عن غيرى .. لا وقت لدى .

هب فجأة وهجم علىّ وامسك برأسى يقبلها فهدأته حتى جلس .. أخيرا ضحكت، وقلت

- خلاص يا عم .. سأذاكر معك .

هب من جديد وهجم على رأسى يقبله .

قلت :

- هل تعلم لماذا ترسب ؟

- أنا مندهش .. تسع سنوات .

- لأنك لا تركز فى القراءة، أنت تركز فى السمك .

كان فتحى سرور يحمل كتبه وسنارته ويذهب إلى النهر، يقضى على ضفته بين الأحراش الساعات متابعا سنارته والخيط وكتبه إلى جانبه .. يفتحها دقيقة ويتأمل حركات ودهاء السمك.

أخذت أجازة من العمل عشرين يوما بصعوبة قبل الامتحان .. ذاكرت مواد السنة الأولى فقط، الطبيعة والرياضة ، الكيمياء والأحياء لأنى لم أدرسها فى التجارة ودخلت الامتحان .. أحضر الامتحان فى الصباح مع السنة الثالثة، ثم يخرج طلابها إلى بيوتهم ونحضر نحن امتحان السنة الأولى ثم السنة الثانية .

وفى لجان التصحيح يصححون لنا إجاباتنا فى امتحان السنة الأولى .. إذا نجحنا ، صححوا إجابات السنة الثانية، وإذا نجحنا صححوا إجابات السنة الثالثة، وقد نجحت ورسب فتحى سرور للمرة العاشرة .

عزمت على دخول قسم اللغة العربية حتى أتقن أدوات الأدب الذى أحب وقد تمكن منى تماما، وعندما ذهبت لملء استمارة الرغبات وجدتنى أختار قسم الفلسفة لأنى بسبب نيتشة أدركت أنى بحاجة إلى التعمق فيها فهى زاد الأدب الحقيقى، كشفت لى قراءاتى الآثار العميقة للفلسفة فى خلق أدب

خالد، وهونت على نفسي أمر اللغة، بأن دراستها مهمة يسيرة توفرها القراءة ومعاونة أساتذتها بشكل حر وغير أكاديمي .

دخلت الجامعة لألتقي بكوكبة فريدة من الأساتذة د. عثمان أمين ، د. زكي نجيب محمود ، د. زكريا إبراهيم ، د. فتحي الشنيطي ، د. مصطفى سويف وغيرهم، والتقيت بالعباقرة من ديكارت إلى أرسطو ، من كانت إلى هيجل إلى إبن رشد والغزالي، ومن أفلاطون وسقراط إلي القديس أوغسطين إلى كير كجارد وهايدجر وياسبرز وسارتر، لكن نيتشه كان دائما يتقدم الجميع بهذه العقلية المتفجرة بالكبرياء والحرية والقوة، ورفض كل ما هو ضعيف وخائر وخامل .. إنه الحيوية والفكر والموسيقى والطبيعة والمواجهة الجسور، إنه الفيلسوف الذى لم ينتج فلسفة بقدر ما أنتج فلاسفة، فقد ألهمت أفكاره الكثير من الفلاسفة كي يقيموا صروحهم، ويهدموا - كما كان يدعو - كل بناء هش أو رؤية عاجزة، لكى يؤسسوا بالفكر الدقيق أبنية فلسفية متماسكة تمتلك القدرة على فهم العالم وتفسير ظواهره الكونية والوجودية والمعرفية ..

نيتشه الذى علمنى أن الألم هو طريق الصعود، والألم هو السبيل إلى القوة والتحدى، وهو الذى قال إن الوحدة الموحشة أفضل من الالتحام بالغوغاء الذين يبددون الوقت، لقد أعاد تشكيل شخصيتي حين قال : «من يود أن يكون ذا قيمة فليتجنب الفارغين والتافهين، وعليه أن يرتفع دائما إلى أخلاق السادة والنبلاء لا أخلاق العبيد والمستضعفين الأذلاء .. الكرامة .. الكرامة هى الحياة .

الأدق أن تقول إنك وجدت لديه ما كنت تبحث عنه وما كان قابعا فى أغوارك اللاواعية، وكثيرا ما صدر عنك حتى منذ الطفولة والإنسان عادة لا يرضى إلا بما يتسق مع روحه.

٦٧

كان القدر يدفع عربته كبائع الفول المتجول، قدره يغلى بينما هو ماض يخترق الطرقات بحماس زائد، يتعجل عقد صفقة ربما تنقله من حال إلى حال .. يركض بهمة وينفث أبخرة متشنجة سرعان ما تنفذ إلى أرواح معذبة.

كنت كعادتى طوال مايو مستنفرا بالتصريحات الملتهبة التى تطلقها عقيرة بعض من يهرولون دون وعى خلف البائع المتجول الذى كان قد سوى ما يطعم به فريق من الانتهازيين والسوقة، أنا مستثار ومسكون برغبة مصيرية فى قلب قلبى لأرى نصرا حاسما للعرب على الملعونة التى احتلت فلسطين.

تعاونت وسائل الإعلام على خلق حالة من التأهب ليتلقى الناس أخبارا ايجابية للغاية، فما أن تنطلق الجيوش العربية حتى تكتسح الكيان الصهيونى الهش، وكنت أشعر أنها لا تغالى، فقد كانت المناورات التى ينظمها كل عدة أشهر قائد قواتنا المظفر حكيم وصواريخ القاهر والظافر التى سارت بشموخ أمام الرئيس تسبقها فى أذنه كلمات نارية تشير إلى السحق والمحق ، وتؤكد بلوغنا المحطة النهائية للصراع مع إسرائيل الذى عطل الكثير من خططنا وأعاق تحقيق الكثير من أهدافنا، بل وكان سببا فى تحريض الغرب ضدنا من أجل عيون الغالية عندهم بما يفوق بكثير غلاوة المسيح الرسول العظيم الملهم ولد سيدة نساء الأرض.

طمأننى جدا حديث جمال مع ضباط القوات الجوية يوم الجمعة الثانى من يونيو حيث قال لهم إن إسرائيل مضطرة للهجوم على مصر خلال ثلاثة أيام على الأكثر، ولن يتجاوز صبرها يوم الاثنين ٥ يونيو .. أولاً ، لأن هناك

أخبارا تؤكد ذلك من مصادر موثوق بها، وثانياً لأن هناك دراسة اقتصدية تمت حول مدى احتمال إسرائيل إغلاق مضيق تيران على البحر الأحمر، أوضحت أنها تعتمد عليه اعتمادا أساسيا وأنها ستحتاجه جدا فى غضون أيام، وستحدث كارثة داخلية إذا استمر إغلاقه، ولذلك لا أطلب منكم غير شئ واحد، نكسب بعده الحرب ..

ردوا جميعا فى صوت واحد :

– أمرك يا ريس.

– أن تظلوا فى السماء فى شكل مظلة جوية، فإذا تلقين الضربة الأولى دون خسائر فى طائراتنا، أبشروا لأنكم أنتم الذين ستحققون النصر .

– اطمئن يا ريس، لن نهبط إلى الأرض إلا مع احتفالات النصر.

– مرة ثانية وثالثة ، أؤكد لكم .. لن يتحقق النصر إلا إن كنتم دائما فى السماء.

كلام واضح ومحدد .. تنفيذه يعنى نتائج مرضية .

انصرف الرئيس وقد اطمئن إلى حد كبير على إغلاق الباب الذى يمكن أن يمر مه العدو إلى قلب الحبيبة .. كان حكيم مع الرئيس يشرح له نتائج أفكاره التى طرحها بشأن إغلاق مضيق تيران وجلاء قوات الطوارئ الدولية.

– سننتهى يا جمال من الورم الخبيث نهائيا.

– أتمنى يا حكيم.

كنت صباح ٥ يونيو فوق السطوح أستعد لامتحان الكلية الذى يحين فى الساعة الرابعة عصرا.. أراجع أهم أراء فلاسفة الأخلاق على مدى التاريخ .. الساعة الثامنة صباحا، وأنا لم أنم .. تعذر كالعادة الحصول على أجازة إلا فى الأيام الأخيرة .. أشعر بالخواء، كان على أن أقطع شوطا قبل أن تعلو الشمس وتلهبنى حرارتها .. لا يزال الصباح نديا.. طلعت أختى تناديني كى أتناول فطورى، قلت لها : سأنزل حالا .

قبل أن أستدير نحو السلم عبرت فوق رأسي مباشرة وبسرعة خاطفة طائرات زيتونية اللون، قلت ربما كانت تلك دفعة جديدة من الطائرات تشارك سابقاتها في المظلة الجوية .. لكني تساءلت عن سرعتها ولونها .. ليس هذا لون الطائرات المصرية ، ولا هذه سرعتها العادية التي تطوف بها السماء في نوبة حراسة واستطلاع، ولماذا هي منخفضة جدا على هذا النحو ؟

عادت الطائرات الزيتونية تخترق الفضاء بوقاحة .. خفق قلبي ثم زاد الخفقان، وبقيت فترة إلى أن صعدت أختي من جديد تدعوني للفطور، أسرعت معها لأفتح الراديو لعل فيه ما يكشف المجهول .. كانت درجات السلم الحجري تتبدل تحت أقدامي وتربكني لكني أندفع هابطا .. لست أدري السر في أني لم أتقبل موضوع توالي سقوط الطائرات المعادية، ليس تهوينا من قدرة قواتنا، ولكن لأني كنت أعتمد على تحذير عبدالناصر للطيارين لتجنب الضربة الأولى، أي إننا سنكون في حالة دفاع كما كان يفعل محمد على الملاكم الشهير .. الدفاع أولا حتى يفقد الخصم الكثير من جهده، ثم القيام عليه بواجب الهجوم الشامل، ولم أكن مرتاحا لمشهد القوات المصرية الزاحفة إلى سيناء، وقد كان معظمها قادما من اليمن منهوك القوى، وأكد هواجسي التي كنت أقاومها لحساب التفاؤل أن الليلة التالية شهدت حديثا صادما عبر الإذاعة عن إنسحابنا إلى خط الدفاع الأول ثم الثاني ..

بدأت أسأل أخي ونفسي وأنا في حالة انعدام وزن : أين الظافر والقاهر أين القوات الخاصة والصاعقة أين ؟ .. أين الطائرات بعد أن شبعنا من الضربة الأولى والثانية ؟!..

شئ غريب ومشبوه .. هناك مؤامرة وتواطؤ .. هناك لابد أسرار، ودلائل انكسار وانهيار مفاجئ وصادم ومفزع .. إلى أن رأيت بعيني صباح يوم الخميس الثامن من يونيو مجموعة كبيرة من الجنود عائدين من الإسماعيلية في قطار يمر بيننا إلى القاهرة .. ركبت معهم القطار .. كانت المرة الأولى

التى أرى فيها عيونا تتفجر منها تلك النظرات الغاضبة .. عيونا تنفث لهبا .. الوجوه مغمورة فى غبار أسود والشفاه رمادية والملابس ممزقة والملابس الداخلية المشوهة بالسخام تنفتح عنها السترات الكاكية .. الخوذات إلى جوارهم والبنادق ملقاة بإهمال، كان أفدح ما تلقيت، الصمت المقهور والمشتعل .. حاولت أن أسأل أحد الجنود عن الحرب، من أين جاءوا ولماذا؟ لماذا ؟ لم يجبنى بحرف، وعاد ينظر إلى الطريق الذى يسرع بالركض فى عكس اتجاهنا .. الأشجار تهرب، والزجاج ملطخ ببصمات الأيدى القذرة .

قلت لهم فى عطف :

– حمدا لله على السلامة .

تنهدوا من أعماقهم، وأكلوا أسنانهم ثم أرسلوا إلىَّ نظرة عطف أيضا لابد إنها من نوع آخر .. عادوا بسرعة إلى المعالم التى تجرى فى الطرقات هرباً من شئ ما .

علمت بعد ذلك أن المشير عامر جمع عددا من القادة فى طائرة عسكرية لزيارة الجبهة، ومن ثم صدرت الأوامر لقوات الدفاع الجوى والصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات بعدم إطلاق أى دانة فى اتجاه أى هدف، لأن هناك قائد عظيم فى الجو، وعندما هجمت الطائرات الإسرائيلية كانت كل وسائل الدفاع منكسة حفاظا على قادة الجيوش المحلقين فى السماء مع حكيم .. إنهم القادة العسكريون الذين – فيما أظن – لم يقرأوا شيئا عن الحروب الحديثة والفكر العسكرى .. إنهم يعيدون الموقف نفسه الذى واجه به المماليك جيوش الاتراك سنة ١٥١٧. كانت الأسلحة هى الغطرسة والجهل، وأجارك الله عندما يجتمع الاثنان .

علمت أن أحد أهم القواعد الجوية وهى أنشاص كانت حتى صباح الاثنين تشهد حفلا لضباط الطيران، كانوا فيما يبدو يحتفلون بالنصر المؤزر قبل أن يتحقق حتى يكون لهم السبق.. لم يستيقظ السادة الطيارون إلا بعد

ثم تحطمت جميع الطائرات في القاعدة وألقيت قنابل موقوتة على الممرات، تمنع صعود الطيارين إلى بعض الطائرات التي كانت في الهناجر ونجت من المذبحة.

فيما بعد علمت أن موردخاي جور قائد الطيران الإسرائيلي طلب لقاء ليفي أشكول رئيس الوزراء لأمر هام وعاجل، ولما التقاه عرض خطة ضرب الطائرات المصرية في المطارات ثم ضرب الجيش المصري المنتشر في سيناء دون حماية .. قال أشكول ساخرا:

– كيف تضرب بطائراتك المئتين أسطولا يزيد على ستمائة طائرة ؟

– وما المانع ؟ .. إن مشهد الجيش المصري فريد وصيد سهل.

– كل ما نملك مائتي طائرة، والقاعدة تقول ألا تهجم بأكثر من النصف وتستبقي النصف للحماية.

قال جور في ثقة :

– هذا تفكير صدقي محمود قائد الطيران المصري.

– هذه قاعدة.

– فرصتنا التاريخية .. سوف نهجم بكل الطائرات حتى تعيش إسرائيل وبدون ذلك سينتهي تماما شعبنا .. خذ قرارك أيها الرئيس.

– سأفكر في عرضك.

– لا وقت .. يجب أن توافق اليوم.

جمع أشكول المستشارين العسكريين ووافقوا على الهجوم .. ساعات قليلة اقتحمت خلالها الطائرات الإسرائيلية الأجواء المصرية، ولم يكن لها من هدف سوى إسقاط قنابلها على الطائرات النائمة .. لقد قتل الصقر الدب، لأن الصقر مستيقظ والدب في غيبوبة النوم .. طائراتهم تحلق وطائراتنا تحتفل، قائد جيشهم يخطط ويفكر ولا ينام ويبتكر ويطلق خياله، وقائد جيوشنا يـ ......

تذكرت ما قاله لي أحمد المصري نقلا عن حسين الشافعي نائب الرئيس.

– دعا عبدالناصر صديقه القديم حكيم قائد الجيش للقائه وكان فى غرفة مكتبه يزرعها ذهابا وإيابا منذ أبلغوه بعلاقات جديدة عقدها المشير مع فنانات ، وكان الرئيس قد طلب منه منذ سنتين إنهاء مثل هذه الأمور التى تصب فى صالح الأعداء وتسئ إلى النظام كله .

حضر حكيم وحدثه بذلك الرئيس .. اعترف حكيم بصحة كل ما سمع مؤكدا إنها ليست إلا مجرد سهرات بريئة وصداقات لا توجد أية غاية من ورائها ..

قال الرئيس :

– لا داعى لها ما دامت ستضر ولا تنفع.

أنها مسألة تافهة لا تشغل بالك بها.

– إذن انته منها تماما .. الأعداء يتربصون بنا حتى فى الداخل .

احتد المشير :

– قلت لك لا تشغل بالك .

صمت الرئيس لحظات ثم قال :

– لو لم تتصرف فى هذا الموضوع ، سأبلغ به الشعب.

أشعل حكيم سيجارة من سيجارة، وقال وهو يتجه نحو الباب :

– إذا أبلغت الشعب ، سأبلغ الجيش.

عندئذ سقط عبدالناصر على أقرب كرسى، وهو لا يكاد يشعر بما حوله.

المصرى ويوسف

نفذ عبدالناصر فى أعماقى عن بعد، تنتقل أخباره إلى وإلى غيرى عبر وسائل الإعلام، وما يصدره من قرارات، أما أحمد المصرى فقد نفذ فى أعماقى بحكم التعامل المباشر وتأثيره كان أكبر .. عبد الناصر حلم والمصرى واقع حى. نتفق ونختلف فى التقاء شبه يومى.

كان ضابطاً فى سلاح الفرسان الذى كان يرأسه حسين الشافعى فى السنوات الأولى للثورة، ومن رجال الصف الثانى لها، اختلف كثيراً مع الرجال إلى أن قاد عصياناً عسكرياً استجمع له من قادة الأسلحة الأخرى وسيطر على القيادة لمدة أربع وعشرين ساعة أوائل ١٩٥٦ إلى أن قضى على الحركة وقبض عليه وقضى فى السجن عدة سنوات.

كان الرجل يقدر ثقافته ووطنيته، وكم كان يطلب رأيه، لكنه كان متأهبا للغضب من كل ما يهدد التجربة، ويتصور كما قال المصرى عنه أن كل شىء فى حالة زجاجية قابلة للتهشم ، ومازالت البنية الشعبية فى حاجة إلى دعم كبير ورعاية تحفظها من عوامل التعرية السياسية والاقتصادية، لذلك لم يكن ينام إلا فى النادر.

بعد السجن طلب إليه الرجل أن ينزل إلى الحياة المدنية لأنها فى حاجة إلى مثل حنكته وثوريته وحسن إدارته، قبل المصرى من بين المعروض عليه استوديو مصر الذى كان يحمل اسم شركة مصر للتمثيل والسينما، وهى إحدى شركات بنك مصر التى أسسها الاقتصادى العظيم طلعت حرب.. دخلنا الشركة فى عام واحد وغادرناها معا بعد عشر سنوات.

أسمر الوجه متوسط الطول، باسم أبدا، معتد بنفسه، وأنيق جداً. منظم

الفكر والحركة، يملك قدرة غير عادية على إقناع الأخرين .. المواقف التى جمعتنى به كثيرة .. لفت نظرى من أول يوم بفضل ترتيب دماغه وسرعة قراراته الذكية التى كانت أحياناً تجمع في براعة بين المتناقضات . أفاده حماسه للعمل مروره اليومى على كل الأقسام وحواره مع رؤسائها ، فى حل المشكلات فى مهدها والتوجيه الفورى لتوفير اللازم لسير العمل، حريصاً على ألا يكون هناك شيء معطلا لأى سبب.

دعانا فى أحد أيام الجمع لنزهة عملية نقضيها فى منطقة مهجورة خلف الاستديو تتجاوز الفدانين .. تهيمن عليها الحشـئش العالية، وأدغال الخضرة التى تحوى الثعابين والضفادع والفئران وكافة الزواحف والحشرات، قال إن كل تكلفة النزهة الرياضية على الشركة وغير مطلوب من العاملين إلا الحضور بملابس تتحمل الغبار.

حضرنا من الصباح الباكر فوجدنا الفؤوس والمقاطف والجواريف والبلط فى جانب، وفى ركن بعيد نسبيا خيمة للمشروبات والأطعمة، طلب أن نتعاون على تنظيف الأرض، بدأ بنفسه حاملاً بلطة، يضرب بها الأدغال ويخوض فى الركام المجهول، أسرعت أتبعه .. تشجع الآخرون فى اقتحام تلك المساحة المهجورة على مدى عقود.

مضى العمل حثيثا وكنا نحو سبعين رجلا وعشرة من النسـاء .. أقبل الجميع فى حماسة احتراما للمصرى وطلب للرياضة ورغبة فى التسلى، وفرحاً بالصحبة وإعجاباً بالمشهد وتمشياً مع روح الاقتحام الكامنة، يسيطر على الكل احساس غامض بأن ما يتم ستكون له فوائد جمة، لم يكن يدور برأس أحد مايدور برأسى، إذ كنت منذ اللحظة الاولى قد عثرت على بغيتى.. هذا المكان الجديد المزمع تجهيزه لانق جـداً فى نظرى ليصبح نادى للشركة، ذلك المشروع الذى تقدمت به ولم يكن ينقصه غير المكان القريب.

قبل الخامسة كنا قد انتهينا من رفع كل ما يشغل المنطقة، انكشف الأفق وأضاء المكان، أضيف إلى الأستوديو ليصبح مكاناً للديكورات، وتم فيه تصوير عشرات الأفلام والمسلسلات التليفزيونية، وكان المصرى قد رفض اقتراحى بتخصيصه كنادى، وإن وافق على تشكيل فريق لكرة القدم توليت الإشراف عليه، ووافق على أن نلعب مبارياتنا على أرض نادى الشركة الشرقية للدخان.

تدريجيا، قربنى منه بسبب وضوحى وصراحتى.. لم تفته ردودى الجاهزة وشبه المرتبة ، وسجالى معه على نحو لم يعهده خاصة إبان عمله فى الجيش. كان أحياناً يسألنى: أيعجبك مافعله صاحبك (يقصد عبدالناصر الذى لمس إعجابى به) أرد عليه ، وبعد نقاش طويل، ينهيه بقوله:

– هذه رومانسية لا أراها ملائمة .. لا للحكم ولا للحياة .

تعددت المواقف بين المدير والموظف وكان يبدو لى إنه فى مسيس الحاجة لشحذ فكره بالنقاش، فكان يطلبنى قائلاً:

– هل أنت مشغول غدا الجمعة؟

– ليس بشىء ذى قيمة.

– هل لديك مانع أن تصحبنى إلى الإسكندرية ؟

– لا .

يصر على أن أكون معه على الكنبة الخلفية وتمضى بيننا الأحاديث بلا توقف حتى أثناء الغذاء والتمشية على الكورنيش، أحياناً يكون معنا فاروق سعيد كاتب السيناريو، مرات قليلة كان معنا الفنان الجميل يوسف فرنسيس.

توثقت العلاقة جداً بعد أن كلفنى بالعمل مراقباً لإنتاج الأفلام ، وفوجىء بى أحل له أعقد مشكلة، يواجهها، وهى مراوغة الممثلين والممثلات

بعد كتابة العقود والرضا بمبالغ معينة، فاذا بهم بعد تصوير عدة مشاهد يتعللون بمختلف الأسباب ويتغيبون عن التصوير، فيتأثر العمل كله .. يحتج بشدة ممثلون آخرون في نفس المشاهد، وتتبدد أموال مدفوعة للفنانين ولإيجار المعدات والسيارات ويتهدد إيقاع التصوير ويتعكر مزاج العمل بشكل عام، لأن إتمام التصوير حالة يجب أن يتوفر لها الانسجام في كل شيء.

في أول فيلم أشرفت عليه كلفت الريجسير بأن يجهز لي من يشبه البطلة والبطل بدرجة كبيرة من الكومبارس، فيجهز لي خمسة لكل منهما، وعندما شرعت البطلة في المراوغة ، طلبت من المخرج الاستعانة بالبدلاء ولو من بعيد أو بالجنب أو من الظهر، المهم ألا تكون هناك خسائر. أصاب الرعب الممثلة الشهيرة التي فوجئت بأن هناك من يقوم بدورها، فأسرعت تتصل قائلة:

– أنا جاهزة .. طبيبي عبقري . في يومين فقط شفيت.

علم الجميع بما دبرت فالتزموا وانتهت المشكلة التي هددت كثيراً من الأعمال الدرامية، وقال المصري

– أنت فرعوني أصيل ولست مهجناً.

قلت : مثلك ياريس.

شهدت تلك الأيام أيضاً تعرفي على شخصيات مؤثرة .. وتصادقنا وتعددت اللقاءات حتى لقد شغلوني بهم عن الكتابة إلا قليلاً .. من هؤلاء عبدالرحمن الخميسي الشاعر الثائر متعدد المواهب، وأحمد كامل مرسي شيخ المخرجين وحسن الإمام ويوسف شاهين وصلاح أبو سيف وعباس الأسواني ومحمد مندور شيخ النقاد والضيف أحمد وغيرهم كثير.

في صيف ١٩٦٨ دعاني المصري لزيارة السيد حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية فاعترض وسألني عن السبب.

– أنا لا أميل إلى لقاء كبار المسئولين فالسلطة لها تأثير مرعب.

قال : ثوابتك بحاجة إلى مراجعة.

قلت : هل تتصور أنى أشعر أن علاقتى بك غير آمنة؟

– إذن لم تعرفنى.

– إنك لست وحدك، أنت الصديق والمثقف والعقل الذى يجذبنى مضافاً إليك السلطة.

– أتسمى مدير استديو سلطة .. أفق من ميراث القرية الذى لازلت تحمله وتخلص من أوهامك.

سكت لحظة، ثم قال:

– اقتحام الحياة مطلوب ولديك أهم الأسلحة .. الثقافة، ثق بنفسك واعتد بها فلديك ما ليس لدى الآلاف.

– الاختلاف فى المكانة يفضى إلى ..

قاطعنى :

– الكبير حقاً هو الذى يحمل الفكر وليس حامل المال أو السلطة.

ضحكت وقلت:

– أمسكت بك متلبساً بالرومانسية.

– أتحدث عن حقائق خالدة لا عن عواطف.

– على الأقل هذا ليس فى مصر.

– فى كل مكان وكل زمان وإن تأثر ببعض الظروف العابرة.

دخلنا الردهة فى فيللا الشافعى، كان هناك فى ركن بعض الشخصيات، كنت مرتبكاً . قدمنى لهم أحمد المصرى ببعض كلمات المديح ثم قال: وفوق هذا ناصرى أكثر من ناصر نفسه.

تذكرت أنى رأيت بعض الوجوه . لم أهتم بشحذ ذاكرتى. لم أكن راضياً تماماً .

قال الشافعى وابتسامته تضىء وجهه الجميل:

- رجل يفهم يا أخى .. ألا يعجبك؟

تبادل الجميع الحديث ومعهم المصرى الذى حرص أن يكون إلى جوارى، وكان أحياناً يميل على ليوضح أمراً.

بعد نحو ربع الساعة بلغتنا طرقات خفيفة لأقدام متعجلة، دنا صاحبها من الشافعى، الذى قال وهو يتحرك خارجاً:

- الريس وصل يا جماعة.

اضطربت وتوجست..

سألت المصرى:

- الريس عبدالناصر ؟

رد بسرعة:- فيه ريس غيره .. مالك .. أليس صاحبك؟

لم أجد ما أقول، ولم أسيطر تماماً على أعصابى .. تركزت نظراتى على الباب الخارجى دق قلبى وزاغت نظراتى.

كان الرئيس دون موعد قد حضر بسيارته السوداء الخاصة .

ظهر على الباب الذى بالكاد يكفيه .. دخل متدفقاً يرمى ساقيه كالجمل مرتديا بنطلون بنى طويل واسع، وقميص كريم بنصف كم، وبيده نظارة سوداء كان قد اعتاد حسب ماعلمت ارتداءها كلما خرج وحده بالسيارة إلى الشارع يتأمل أحوال الناس.

حيا الجميع ثم جلس.. بدت عالية ساقاه الطويلتان ولمحت رأسه الكبير عن قرب.. وضع النظارة على المنضدة وجلس إلى جنبه الشافعى. سأله عن السيدة ماجدة والأولاد وسأل شخصاً اسمه عباس ولعله كان على الأرجح عباس رضوان وثان باسم صلاح.. تراجعت الوجوه والأصوات وشغل الرجل كل المساحات فى رأسى وعيونى ، شملنى الإحساس القديم بأن الكون ضبابى، إلى أن التفت إلى المصرى وقال له

– سمعت إنك عامل شغل كويس فى السينما.

– تتم الآن دراسات لتطوير السينما.

نظر إليّ الرئيس وهو يقول:

– السينما الجيدة والجميلة أهم من المصنع.

– نحاول الاهتمام بالفيلم التسجيلى.

قال الرئيس:

– التسجيلى مطلوب. والروائى . فيه أحداث وشخصيات تاريخية كثيرة تحتاج لمعالجات.

– المشكلة إننا نبحث عن الدعم والكوادر.

– الدعم علىَّ والكوادر عليك.

– انحلت المشكلة.

– بالنسبة للدعم حدد أولوياتك.

– المعامل والبلاتوهات.

– عندك حق .. هذه الأمور أساس السينما .. نخلص من البلاوى السودة اللى فى سيناء ونتقل البلد نقلة تانية .

عاد ينظر إلىّ..

لاحظ المصرى ذلك .. فقال:

– فؤاد زميلى فى الشركة وكاتب قصصى له مستقبل.

نهضت بسرعة وتقدمت منه .. سلمت عليه بحرارة، اختفت يدى فى يده.. ولما حاول سحب يده تمسكت بها.. عينى توشك أن تطلق دموعها، فحبستها، أسرع أحمد يقول:

– ناصرى عنيد.

ابتسم عبدالناصر عندئذ ابتسامة حزينة لا أنساها ما حييت .. ابتسامة موءودة .. قلت بصعوبة:

– ربنا يديك الصحة ياريس.

خشيت أن يخبره المصرى بأمر رسالتى إليه فى أعقاب الانفصال .. الرجل فى حالة لاتسمح بتذكيره بالمواقف التعسة.

– تفضل ياريس.

التفت الرئيس فوجد صوانى معدنية كبيرة عليها كميات من اليوسفى.. مد يده فرحاً كالطفل .

– الله .. يوسف. .

التقط برتقالة واحدة وقشرها على عجل والتهم فصوصها، وأسقط بذورها فى كفه اليسرى، ووضعها فى طبق زجاجى عليه رسوم ملونة لم أميزها، امتدت يده اليمنى تلتقط الثانية، وقشرها على عجل. كان واضحاً أنه يحب يوسف أفندى.

قال وهو يفتحها ويهم بوضع عدد من الفصوص فى فمه:

– ماذا جرى للزراعة؟.. العلم الحديث غيّر كل حاجة .. برتقال فى الصيف؟

ضحك معظم الحاضرين، بينما كنت على حالتى أرقبه، كأنى أرقب كائناً أسطورياً قادماً من أعماق التاريخ.. تأمل فى دهشة مايجرى حوله قبل أن يحدد رد فعله.

كنت أول من لاحظ أن فمه توقف عن المضغ، و هو يراهم يضحكون، حتى قال أحدهم:

– لا علم ولا حاجة ياريس .. اليوسفى وصل حالاً من باريس.

ازرق وجه الرجل ثم زاد سواده واحمرت عيناه، واتسعتا. تلفت يميناً ويساراً، ربما ليرى أثر ماقيل على الحضور.. بثت عيناه رعباً هائلاً وساد صمت رهيب.

حرص الجميع على مراقبته ، وقد بدا متأخرا أنهم أيقنوا بالزلل والخطر

المتوقع. كان الذهول شاملاً .. صوب الكثيرون نظرات غاضبة إلى قائل العبارة الأزمة .. أخيراً ألقي ما في فمه على المنضدة. أسرع الشافعي إلى الخارج وفي أعقابه نهض الرجل بصعوبة، ولما وقف بدا أضخم مما كان وأوشك أن يرتطم بالسقف.

قلت للمصري هامساً ومرتعدا

– سوف أذهب.

ضغط بيده على ركبتي وهو يقول:

– لن تتحرك قبل أن يأتي سيادة النائب.

بعد لحظات عاد الشافعي يقلب كفيه ويقول:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

سأله المصري عن الحال، فقال

– فهمت أن الرئيس سيخرج مندفعاً وغاضباً . قلت لسائقي أن يفتح له باب السيارة الخلفي، وهو بالطبع لن يتذكر أنها سيارته فيجلس على الكنبة الخلفية، وينطلق به السائق حتى بيته، لأنه إذا قاد بنفسه، سيتسبب في عدة حوادث.

وقفت من جديد لاتحرك ووقف آخرون، فقال الشافعي.

– لا أحد يتحرك قبل أن يعود السائق وتعرف ماذا جرى، فقد قلت له: سجل في رأسك كل حركة وكل كلمة تصدر عن الرئيس.

اضطررت للبقاء .. احتد الحديث بين الجميع.. ارتفع ثم هدأ وعاد للصعود والحدة إلى أن عاد السائق الذي كان يلتقط أنفاسه بصعوبة.

قال لقد جلس الرئيس خلفي مباشرة، هادئا في البداية ثم سرعان ماصار يخبط بيده الثقيلة على الكنبة وراء ظهري مباشرة وهو يقول:

– الكلاب .. لا أحد يحس . البلد محتلة وهم يطلبون الطعام من باريس.

يمسك رأسه ثم ينفخ حتى يطير شعرى، ويضرب الكنبة بقوة فتكاد تختل في يدى عجلة القيادة .. كان كالأسد المحبوس يعاود القول وهو يضرب كفا بكف ويتنهد بغضب:

– أعميت قلوبهم إلى هذه الدرجة؟ أفقدوا الإحساس حتى إنهم يحضرون البرتقال من فرنسا؟ ومن يعلم ربما يطلبون غيره من دول أخرى وتعمل لحسابهم شركة الطيران ..

أخذ يتلفت في كل اتجاه وأخيراً زعق.. البلد يا ولاد الـ.. ثم يعود للخبط الشديد فوق الكنبة.. كدت أصطدم عدة مرات بالسيارات، الحمد لله ربنا ستر. وصلنا بيته، وتركت السيارة بمفاتيحها بعد أن نزل منها مسرعاً. وتشهدت وكان قلبى يخفق بشدة خوفاً أن ينادينى ويسألنى عن أى شىء، كانت حالته تصعب على الكافر. مال السائق فجأة على جنب وانكمش واندفع يبكى ويرتج جسده كالمصعوق.

عندئذ سلت دموعى المحبوسة وقال الشافعى:

– عاجبكم .

قال واحد من الحضور له شنب دوجلاس ، ولا يترك سيجارته أم مبسم:

– لا تشغل بالك ياسيادة النائب، هى طبيعته التى لن يغيرها، يغلقها على نفسه وعلينا.

عدت والمصرى دون كلمة واحدة .. حاول أن يفتح حديثاً أو يعلق، لكننى كنت غير مستعد للحوار .. كانت روحى فى أنفى والكوب ممتلىء حتى الحافة. أتنفس بصعوبة وقد شملنى خاطر مستبد، أن هذا الرجل سيموت قريباً لأن معاناته فوق احتمال البشر.

أخيراً .. الزواج

ما أن ظهرت النتيجة حتى توجهت إلي بيتها لأطلبها من أهلها.. أخيراً بعد خمس سنوات من الحب العذرى الذى لايتجاوز لمس الأيدى وتبادل الكلمات الحالمة والمحلقة خلف أنفاس كيوبيد الذى يبدو كأنه لم ينشغل بغيرنا حريصاً على أن يزورنا بالليل والنهار. فى أتوبيس الشركة وفى كل كازينوهات القاهرة وعلى كورنيش النيل، من شبرا إلى المعادى.. لقد تعب معنا كثيراً، وآن أن تنتقل مهمة رعاية حبنا إلى المأذون والأهل.

لم نختلف يوماً واحداً، بل ولا ساعة أو دقيقة .. طائران يحومان معاً .. يصعدان ويهبطان ويأكلان ويشربان .. تنام الأيدى فوق بعضها وتغوص العيون فى بحيرات العيون.

كل يوم يمر أشعر بالسعادة الغامرة لأنى أقترب من موعد تتويج العلاقة العاطفية العميقة والوثيقة والمشردة فى الشوارع برابطة رسمية .. كل موظفى الشركة يعلمون تفاصيل قصة حبنا المشهورة ويحترمون علاقتنا جداً، وكم فكر شاب غريب أو جديد أن يتقدم من هند للحديث إليها أو لطلب الزواج منها.. سرعان مايجد الرد من أى شخص.

- ابتعد .. محجوزة لفلان.

- كنت أود.

- ولا كلمة.

فى رحلات اليوم الواحد إلى القناطر أو كبريتاج حلوان أو الهرم .. أو

القلعة أو الفيوم .. كان الزملاء يركضون ويلعبون ويمارسون كل ألوان اللهو والفرح والمرح، ويتركوننا وحدنا نتحدث حديثا لاينتهي، ولا أعرف لماذا لم يكن ينتهي أبداً ..

وصفت لي المنزل .. ومع كل خطوة تقربني منه، كان القلق ينتابني وينفذ بداخلي على عجل مثل مسمار قلاووظ .. حارة من داخل حارة ثم أسأل .. زقاق إلى اليمين وعطفة إلى الشمال أسأل ، إلى أن وصلت ، وأشار لي آخر من سألت إلى البيت. قلبي يدق وخطواتي تتراجع بتوجس إلى الأمام وتتوقف ثم تفكر في التقدم للخلف .. هناك لابد خطأ. البيت أكاد أرى سطحه لو قفزت،، أو لو كنت أطول قليلاً.. النافذة من يفتحها لا يرى أعلى من ركبتي.

فكرت أن أتجاوز البيت وأمضي من الحي كله، فوجئت أن الحارة سد، وعليَّ أن أعود إلى الوراء، لكني لا أدري كيف وصلت .. اختلط عندي اليمين بالشمال .. هل أنا في ورطة؟.. هل هذا كابوس .. وقف أبي وأمي أمامي، يسألاني..

- ألا تعرف البيت؟
- أعرفه .
- أين؟
- هنا .

تنهد أبي ورفع رأسه إلى السماء، وضربت أمي صدرها ، يكفي اصفرار وجهها وتجهمه الشديد ونظرات العتاب النارى التي تغرسها في عيوني فيما يشبه الازدراء.. الغريب أن هذا ما حدث بالضبط عندما جاءا معي بعد ذلك

بشهر .. ولم يكونا معي عندما حضر كيوبيد علي عجل ودفعني خطوات قائلاً . انتظرت طويلاً . هيا..

طرقت الباب وفتحت لي صبية في نحو الثانية عشرة .. راعني مشهد الأرض المنخفضة ، والضوء الشحيح في هذا القبو العجيب .. سألت البنت:

– هل هذا منزل الأستاذ شلبي الحديدي؟

ضاعت ملامح الصبية لحظة ثم ابتسمت قائلة:

– نعم .. اتفضل يا أستاذ فؤاد.

لم تكن هناك سلالم للهبوط المتدرج، كان عليَّ أن أتماسك جيداً وأنزل قدمي وانتظرها حتى تلمس الأرض ثم أتبعها بالقدم الأخرى .. تعجبت لقدرة سكان الدار على صعود هذا الحاجز والقفز منه إلى الداخل . وتعجبت لعجزهم عن بناء مطلع أو درجات أو الاستعانة بمصعد ولو بدائي.

وقفت أتطلع إلى القبو .. تعجبت لطوله وضيقه، فهو ممر مظلم جدارنه مهترئة تكاد تطبق على ضلوعي لولا أن السقف عال كسقوف المستشفيات .. أشارت لي الصبية وأنا لازلت في أول نزلة إلي باب صغير على اليسار . نفذت منه إلى حجرة عجيبة منخفضة وضيقة، بها أربعة كراسي صغيرة جداً تكسوها أقمشة كانت ملونة يوما ما ولكنها الآن حائلة، بها مزق كثيرة في الأجناب وعلى المساند.. الحيطان كان لونها أزرق .. هذا واضح لأن القليل منه لازال معلقاً بها.

جلست .. يبلغني من فوق رأسي وقع أقدام العابرين في الحارة واحتكاك شباشبهم على أرضيتها الحجرية .. لم أستطع أن أمنع نفسي من استعادة

تفاصيل الكابوس وكيوبيد الطائش يقول لي : ضع هدفك نصب عينيك وتجاهل تماماً ماعداه.

طال الوقت فاعتصرني الكابوس، بينما كان كيوبيد يجتهد فيّ تجفيف عرقي والتربيت على قلبي المرتعد.

بعد نحو ربع ساعة مر عليّ (داس عليّ) كشهر، انفتح الباب عن سيدة ضخمة حاولت جاهدة الدخول حتى تمكنت .. وقفت .. سيدة جميلة بيضاء متوردة .. ترتدي ثوباً أبيض وعلى رأسها طرحة برتقالية .. سلمت عليها ورحبت بي، حاولت أن أعرف أين ستجلس فهي تشغل الحجرة جميعها تقريباً، لكنها لا أدري كيف، تجمعت بشكل ما وجلست على الكرسي الصغير الذي لا يزيد عرضه عن شبر ونصف.

كانت هند وراءها .. كان يجب أن يحدث العكس، لكنه ربما الاحترام الشكلي .. عرفتني بأمها وعرفتها بي، جلست وتأملت هندامي، كي تطمئن أني أحوز الرضا.. أظنني سأحوزه، فقد كنت أرتدي بدلة جديدة لم تستعمل من قبل، رمادية مشرقة وقميص أزرق ورابطة عنق بمبي في أزرق ومنديل بمبي في جيب الجاكت، كما كنت متمتعاً بشبابي وفرحي لأني سأخطب هندا.. أجمل كائن في الوجود .. أمها كانت أجمل وكان حجمها تقريباً أربعة أضعاف حجم ابنتها .. كيف حدث هذا؟ هند تساوي فخذا واحدا أو نصف صدر مع ذراع.

عيون واسعة سوداء وشعر أسود فاحم يبدو من تحت الطرحة، تخترقه أربعة شعرات بيضاء على الاكثر. جاء ولدان لايشبهان هندا، فهما سود البشرة ولكن الصبية التي فتحت لي باب الدخول إلى هذه العائلة العجيبة

تشبه هندا فى كل شىء تقريباً .. نعم .. إنها عائلة عجيبة، فقد جاء رجل ضئيل جداً، أبيض البشرة لا يكاد يفتح فمه .. هو أبوها شلبى الحديدى، عرفت بعد ذلك أنه طليق السيدة ، ثم جاء رجل ضخم أسود، مؤكد هو زوجها الحالى وأبو الولدين، وعندما جاء الرجل الأخير خرجت هند لأن الكراسى لاتكفي والأكسوجين .. أحسست بالحصار فى الحجرة الضيقة مهترئة الطلاء.. سألتنى الأم عن أشياء ولكنى كنت شارداً.. أتذكر أن هندا قالت لى قبل خمس سنوات:

- لن يقبلك أهلى إذا لم تكن خريج جامعة.

طالت الجلسة ولم يكن أبو هند ينطق لأنها طبيعته والآخر لاينطق لأن الأمر فيما يبدو لايعنيه.. علمت بعد ذلك أن الزوج الحالى هو الذى ينفق على البيت وأن شلبى لاعلاقة له بأى شىء، ولا حتى بابنته.. بل لم أره طوال سنوات ثلاث تالية .. الرجل الأسود الذى لم أره بعد ذلك إلا وهو فى ملابس ورشة الميكانيكا متسخ الملابس واليدين والوجه والهباب، لكنه كان فى غاية الكرم مع السيدة الجميلة وأولادها من الطرفين.

رفض أبى وأمى تماماً هذه الزيجة وأقسما ألا يوافقا عليها حتى لو انطبقت السماء على الأرض، كانا رحمة الله عليهما ينوبان حباً فىَّ، حتى لقد كان شبه معروف فى الأسرة أنهما يفضلانى على إخوتى، وهذا لم يكن صحيحاً، كل ما هنالك أنى ألتزم بأوامر الخالق سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم، فلم أقل لهما أف أبداً، إلى درجة أن أبى كان يضربنى صغيراً ، فإذا طارت من يده العصا اندفعت إليها، وناولته إياها، وأنا لا أستعرض أو أزايد .. لكننى كنت فخوراً بأن أقبل أيديهما فى محفل، ولو أتيح لى

لقبلت أقدامهما فهما، الرحمة والحب والحنان والنصح والرعاية والحضن الدافىء والسند.

طاردتهما في كل دقيقة فازدادا إصراراً، إلى أن استعنت بجدتي لكي تقنع ولدها بالموافقة، وكانت تقترب من المائة فاقدة السمع والبصر، متكومة في ركن من دارها، ليست أكثر من عظيمات قليلة ناحلة، لاتكاد ترفع قشة من الأرض، قالت لأبي:

- زَوِّجْه يا ولد، وإلا

قال وهو يبحث عن يدها ليقبلها بينما كان يكبح دموعه : حاضر ياأمي.

بكيت، ولكنه قال

- اعلم أني سأتوجه إلى الله ألا تكون من نصيبك.

شعرت بالطعنة .. همس كيوبيد بسرعة في أعماقي قائلاً :

- المهم أننا نلنا ما خططنا له طويلاً.

عدت إلى أبي وأمي، أغمرهما بقبلاتي، ليس فقط من أجل الموافقة التي منحاها لابنهما المحب، ولكن أملاً في ألا يغضبا عليَّ دقيقة واحدة .

عقدنا القران واستخدمت السيدة السمينة الجميلة ابنتها في اصطيادي، دفعت المهر عدة مرات واستدرجتني كل ليلة كي أشرح لجميع أولادها دروسهم، وكانوا فيما أظن ستة غير هند، أكبرهم في الثانوية العامة وأصغرهم في الأولى الابتدائية أي أنني في الأغلب شرحت كل مقررات التعليم المصري في جميع السنوات، واستمر ذلك أعوام ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢ وبالتحديد من أكتوبر ٦٩ حتى يونيو ١٩٧٢م.

رغم أنى عملت مراقباً مالياً وإدارياً للأفلام فى شركات السينما الحكومية وكسبت كثيراً فقد تبدد كل ذلك على تجهيز الأثاث الذى لم يتكلف أحد فيه مليماً وكان بالكامل على عاتقى ، وإذا أبديت بعض التحفظ تغضب هند ويتدخل كيوبيد الذى يمسكنى من قلبى .. أصبحت أمها أيضاً تمسكنى معه، حتى أوشكت أن أتسول.

كل قرش تسحبه من زوجها تنفقه على الطعام .. لا تكف عن الأكل الذى ختاره بمزاج وترتيب وتنفق عليه اليوم كله، وما تلبث أن تطلب عشاء فاخرا ن المحلات المجاورة وكانت ترغمنى على العشاء، وإلا صرخت وهاجت إدعت المرض ، وهددتنا بقلبها الذى يعانى كثيراً ليضخ الدم فى هذا لكيان الضخم .. كانت دائماً تقول لى بحنان:

– أنت تعيش وحدك فى القاهرة، ولو لدينا مكان يناسبك لأبقيتك معنا .. من أجل خاطرى لاترد لى كلمة خاصة عندما نضع الطعام.

كائن خرافى .. جميلة جداً وشرسة جداً أحياناً . حنون .. قوية الشخصية، ذكية جداً لا يضحك عليها أحد ولا يغلبها .. يخشاها الجميع حتى باعة السوق بلا استثناء .. تمتلىء بالحياة.

أنقذت منها أولادها عدة مرات، وهى تركب بفخذها الهائل فوق الواحد منهم، إذا تأخر عن موعده وبالذات .. البنات . هند وسمية ونوال.. أقوم بعملية الانقاذ بعد أن يكون الضحية قد أوشك على لقاء ربه، لأننى فى الحقيقة لا أستطيع أن أحرك عضواً من أعضائها اللحيمة، ليس عن ضعف، بل لأنها حين تغضب تصبح وحشاً، كما أنها لاتحب أن يوقف بركانها أحد. تريد أن تتوقف بمزاجها، وأن ترحم بإرادتها وأن تغفر وقت تشاء، وعادة

يكون ذلك بعد أن تشبع وتشفي غليلها.

لا أنسى المشهد المخيف. فقد قذفت سمية بوابور مشتعل كانت تستدفىء على ناره في ليلة شتوية ، ولم تكن هند بعيدة تماماً عن ثورات الأم الغاضبة.

على كل محلات الأثاث الفاخرة تدور هند وتختار أفضل التصميمات والأخشاب والتجهيز وتحمل المواصفات إلى النجار الذى اتفقت معه أمها وهو على ناصية الشارع الذى تتفرع منه عدة حارات تفضى إلى حارتها.

كلما شكوت لهند قالت : اصبر .. هانت .. اصبر ، هانت .. فات الكثير..

حتى كان أكتوبر ١٩٧٢، ولا أدري ما حكايته معي أكتوبر.

لكنك لم تذكر إلا القليل جداً مما حدث لك مع هذه العائلة العجيبة ، وأنت الذى سميتها كذلك كما سميت عائلتك من قبل. العجائب مختلفة والطباع أيضاً، ولم تشر من قريب أو بعيد أنك كنت معجبا بالأم ، تحدق فى ملامحها طويلاً وإنك تحبها وترضخ لها برغبتك وتجد متعة فى أن تستبقيك فترضى. وكنت تهديها زجاجات العطر الثمينة .. لماذا؟ .. اعترف .. لم يكن حبك لهند هو فقط الذى جعلك تتحمل الغرائب وبعض الأمور المتدنية أو الهابطة..

توقفي بالعينة .. فليس كل شيء يقال، وما هى إلا ظنون أربأ بك أن تسمحي لها أن تخطر على بالك أو تتغذى على أهوائك .. فكوني كما عهدتك غير أمارة إلا بالخير.

جابر

عن أحداث ١٩٦٧م، كتبت روايتى الأولى «أشجان» بين سنتى ٦٨، ١٩٦٩، وقد نالت استحسان بعض الأصدقاء من الكتاب .. أعجبتهم شخصية جابر الذى تطمح كل الشخصيات أن يعود كى يرتب البيت بعد الاحتلال الصهيونى لمصر ، وكنت قد خترت الاسم تقديراً لزميلى الفنى فى صالة العرض باستوديو مصر، إنسان بسيط لكنه مثقف وماهر جداً فى كل ما هو يدوى ، قوى البنية ، يحبنى جداً .. ما أن أطلب أى خدمة حتى ينفذها فوراً. يكفى أنه كان يخرج لى سيارتى الخنفساء المحشورة بين سيارتين .. يرفعها بيديه من الأمام والخلف عدة مرات، وكم تكرر هذا المشهد.

هو الذى نقل أثاث بيتى ومكتبتى نحو سبع مرات من شقة إلى أخرى بعد أن يكون قد لف ودار أياماً يبحث عن الشقة المناسبة ثم يدعونى إليها. كنت أترك البيت وأسلمه المفتاح وأغيب أسبوعاً، أقيم خلاله عند خالتى فى شارع مسرة بشبرا حتى ينقل كل ورقة وكل كتاب وكل كوب وحلة، ويرتب كل شىء على مزاج زوجته التى تقتفى أثره فى حبى، ثم يأتى مكتبى بالمفتاح الجديد .. ينحنى فى طقس مسرحى لطيف راجياً أن أتقبل وأتعطف بسكنى البيت الجديد .. مخلوق رائع تجعلك تصرفاته تبدى المزيد من الإعجاب بالخالق العبقرى.

فى إحدى المرات طلبت الانتقال من الشقة خوفاً من القتل، كان حتماً أن أموت رمياً بالرصاص وليس بأى وسيلة أخرى، فقد علمت ذلك أخيراً، ولم يكن لى يد فى دفع القاتل نحوى ، ولا كان بسبب ارتكابى أى جرم. وما

كنت أعرف القاتل ولا يعرفني، ولكنني تيقنت فجأة أني مقتول.. مقتول ، في عز شبابي ولم أبدأ الحياة بعد، كنت قد عقدت قراني على من أحب أسبوعين فقط دون أن أتمتع بزواج فعلي، وانتهيت من روايتي الأولى، إ هي كلها بدايات وبالقلم الرصاص على طريق إثبات الذات.

عدت في ليلة بعد زيارة هند وأهلها وقضاء ليلة مرحة وهنيئة .. حاول النوم فلم أستطع، توسلت إليه فلم يستجب، وكي أتخلص من حالة اللا نو، واللا يقظة، نهضت بحماس وأعددت كوباً من الشاي ورأيت أن أقرأ رواية مذكرات محكوم عليه بالإعدام «لديستوفسكي» ، إذ طال عليها الأمد وهي على المكتب دون أن أقربها وأنا من عشاق هذا الكاتب الفذ.

الصمت شامل والجو بديع .. نسمات رقيقة تلمس جلدي برهافة والكتاب شائق، والموضوع له جاذبية إذ أنني لم أتصور يوماً مشاعر المحكوم عليه بالإعدام .. الشخص الذي يعرف بالتأكيد أن الحكم صدر عليه ليلقى حتفه، وتصدق على ذلك من كل المسئولين وأصبحت النهاية البشعة على بعد أيام.

عليك أن توضح للقارىء أنك حتى هذه اللحظة .. وعندما اخترت الكتاب لم تكن تعلم أنك ستقتل .. وإنما هذا ماظهر بعد ساعات قليلة.

لديك حق، لفتة ذكية منك .. مضيت أقرأ والليل يستدرجني للسهر ويدفعني أن أتجاهل أهمية الحصول على قسط كاف من النوم استعداداً لعمل الغد الذي سيبدأ مبكراً إذ تعين تجهيز ميزانية الفيلم الجديد وعرضها على اللجنة التي سيحضرها المخرج ومهندس الديكور ورئيس الشركة بحضوري ، وتوقيعنا عليها يعني التزامنا بكل بنودها.

بعد ساعة وبينما الصمت شامل تماماً، سمعت صوت احتكاك حاد «تشيك تشيك».. أعطيت كامل سمعي للصوت الغريب.. كان احتكاك حديد في حديد .. جمعت كل أعصابي في أذني، وتسمعت بقوة شفط مركزة ،

نعم.. حديد في حديد.. المصدر قريب .. فتحت الباب بمنتهى الحذر .. الصوت قريب جداً آه .. إنه من الحجرة المجاورة .. كانت الشقة من ثلاث غرف .. غرفة سفرة وغرفة أسكن فيها وغرفة يسكنها قريب لصديق رجانى أن أتقبله معى وسيدفع نصف الإيجار، وحكى لى ظروفه كطالب فى السنة النهائية بالحقوق .. سنتحمله إذن عاماً واحداً .

وضعت أذنى على باب غرفته فسمعت الصوت نفسه .. قررت دفع الباب فجأة لاكتشف ما يحدث ، فقد لعب الفار فى عبى ... كان الباب مغلقاً .. طرقته بقوة وعجلة .. توقف الاحتكاك وبلغتنى قعقعة.. افتح يابكر .. افتح .. فتح بكر وهو بالفانلة والشورت، كان الرعب يشمله .. اقتحمت الغرفة وأسرعت كرجال البوليس إلى المرتبة فرفعتها .. لم أجد شيئاً . وجدت ما أبحث عنه تحت السرير.

كان مسدساً كبيراً فى حجم نصف بندقية .. صناعة تبدو محلية وفقيرة .. سألته . لم يرد.. عدت أسأله، ولما لم يجبنى أخذت «الفرد»، واتجهت إلى الباب فأسرع إلىّ.. أمسكنى وهو ينكس رأسه .. قال:

– أرجوك.

– أرجوك أنت ..

شدنى وأجلسنى إلى السرير .. كان بكر طوال الشهر الذى أقامه طيباً ومؤدباً، وكان مخلصاً فى تنظيف الشقة والأوانى وترتيب كل شىء، مع أنه يدفع مثلى، مد يده إلىّ بربع ورقة، مكتوب فيها سطر واحد «سليم علم بأنك تسكن شارع الهرم».

مددت شفتى جهلا .. قال:

– سليم يطلبنى.

فهمت .. سألته:

– وهل تستعد له؟

– لابد

– لكنه لايعرف أنك تسكن هنا.

– سيعرف بسرعة جداً.

– والعمل؟

– من الغد لن أغادر الجنينة.

يقصد الحديقة الأمامية للبيت .. كان البيت من دورين في منطقة شبه زراعية .. على بعد بيتين من شارع الهرم الرئيسى ..الظلام يشملها، لأنها قليلة السكان.

وقف ينتظر رأيي، لم أعلق .. طارت كل الأفكار .. رأسي خاوية تماماً.. كنت غارقاً في تأمل مسألة الثأر، وقد تصورت إنها انقرضت، وأصبحت السينما تتناولها بشيء من السخرية.

تركته دون كلمة، وعدت كالمنوم إلى غرفتي. جلست إلى المكتب ذاهلاً إلى أن وقعت عيني على غلاف الكتاب.. تصورت للحظة أنه يتحدث عن بكر المهدي .. أقبلت على القراءة بعقل مختلف أحاول أن أسبق الكتابة .. لكن الأوضاع والأسباب مختلفة.

تنقلت بين الكتاب وبين جاري .. قرأت قليلاً وفكرت في أسرة بكر، وفكرت في صديقي الذي أحضر لي قريبه .قبل الفجر بنحو ساعة تذكرت رواية «اللص والكلاب» لنجيب محفوظ، حيث قتل سعيد مهران أحد الأبرياء بعد أن نقر باب شقته وفتح الرجل الباب ولم يمهله الجاني لحظة حتى يتأكد أنه من يطلبه .. أنا إذن الذي سأقتل وليس بكر.. ربما نام بكر في الحديقة وهو مختبيء أو ذهب يقضي حاجته، ووصل طالبه وطرق الباب وقمت ففتحت له..

طرقت باب بكر مبكراً كي أقول له.

– ابحث لك عن سكن آخر.

لم أجده.. عادت كل الفئران التي تملأ الأرض تلعب في صدري .. عدم وجوده، يعني أني مقتول .. مقتول .. فأين ذهب؟.. ربما فضل أن يستعد من الآن في الجنينة.

أسرعت إليها .. لم أجده .. هل يكون الجاني قد حضر وقتله بمسدس مكتوم الصوت، وهو الآن جثة داخل الغرفة.

قاومت نفسي حتى لا أكسر الباب ، وأخيراً كسرته ، فلم أجد جثة بكر، وبحثت عن «الفرد» ، فإذا به مسنود على الحائط وراء الباب .. تركت له ورقة تقول: ابحث لك عن سكن آخر اليوم قبل الغروب.. أمر هام جداً وعاجل.

ذهبت إلى العمل وظللت أتابع أحداث القتل والأخطاء التي تخالطها وتوجه الأمور إلى نهايات غريبة ، حتى اقتحمني خاطر ملت إليه واقتنعت به، وهو أن أغادر أنا البيت إلى خالتي في شبرا لمدة أسبوع ، وسواء بقي بكر في الشقة ، أو على قيد الحياة أو فارقها ، فسوف أكون في مأمن.

أخذت حقيبتي إلى شبرا، ذلك الحي الذي أحبه، وأمضيت أسبوعاً. ثم عدت، فوجدت فور أن فتحت باب الشقة ورقة تقول: سليم علم أنك تسكن هذه الشقة، ارحل فوراً.

سقطت الحقيبة من يدي، وأسرعت بغلق باب الشقة، طلبت جابر لينقل ما فيها إلى شقة أخرى، لأنني إذا بقيت لليل فلن يطلع عليَّ الصباح، مازال الرجل يطلب «بكر»، وبكر لم يقتل بعد، وعلم الرجل مكان خصمه وهو الآن في الطريق .. بعد يومين كنت في شقة جديدة، لكنني عدت بعد شهر أطلب جابر كي ينقلني منها لأن صاحبة البيت جميلة جداً، وزوجها جزار شرس جداً، والسيدة تبدي عناية خاصة بي فتذكرت فيلم «السفيرة عزيزة» .. وأسرعت أطلب الغوث.

الجبر والاختيار

لما علم أنى انتهيت منها، أصر حمدان جعفر على قراءتها، ولما أتم القراءة، قال إنها ستكون باكورة أعمال دار النشر التى سيؤسسها قريباً،، ولم يكن معه مليم واحد، ثم اختفى ليعمل فى الخليج وغاب عن مصر عشر سنوات وأنا أكاد أجن لأن الرواية كانت مخطوطة، وليس لدى منها نسخة أخرى، وقد عاد عام ١٩٧٩ وأسس الشركة العربية للنشر وكانت «أشجان» أول ما نشر أوائل عام ١٩٨٠م.

حمدان ابن أخميم .. صديقى الحبيب وزميلى فى قسم الفلسفة، يشهد بفرح حقيقى حوارى الدائم مع الأساتذة، وضيق البعض منهم بنتائج قراءاتى، كما تحمس للموضوع الذى اقترحته على الدكتور زكريا إبراهيم كى أعد حوله رسالتى للماجستير.. «الإنسان بين الجبر والاختيار»، لكن الدكتور زكريا ظل يرجىء الموافقة على الموضوع بحجة أن العنوان يحتاج إلى بلورة، وإن كان يؤيد الفكرة، حتى لقد ضاع عام تقريبا بين أخذ ورد، إلى أن نصحنى بمحاولة اختيار موضوع غيره أكثر تحديداً مثل المقارنة بين فيلسوف عربى وأوربى، لكنى كنت محتشداً للموضوع وسودت عشرات الصفحات على الدرب ذاته بما يكشف ترجيحى إن الإنسان مخير فى كل شىء.

كنت أرى العالم يحفل بالشرور والمكائد، ويعج بالمشكلات ويسحق الناس الفقر والجوع وتمحقهم الحروب، ويستحيل أن يكون الله وراء كل ذلك.. الإنسان الأنانى والجشع والطاغية هو الذى يفعل.. ولعل رؤيتى هذه هى السبب فى تراجع حماس د. زكريا لأن شكوكاً كثيرة تكتنف وتحوم حول مسألة حرية الإنسان، وهى من الأمور التى تسعى كل الفلسفات تقريبا للاقتراب منها وبلوغ أطرافها، لكن الحياة

في المقابل تعطل ذلك وتدفعنا إلى أن نقر بالعكس.. أحداث كثيرة حتى في حياتي شخصياً كانت تمضي في غير اتجاهي.

ومن المعروف في الفلسفة أنك تترك للعقل كامل الحرية كي يفكر ويتأمل في الوجود بعيداً عن الدين وكأن الله غير موجود ولعل هذا هو السر في رعب البعض منها، وأرى أنها أروع تجليات الفكر وأفضل العلوم.. متعة غير عادية أن تفكر في الكون بعقلك وحده، ولقد كنت مشدوها لأنى كلما استخدمت عقلي وحدي أدركت عظمة الخالق وتقدمت كثيرا على درب الإيمان.

تحاورت مع الدكتور إبراهيم بيومى مدكور أستاذ الفلسفة الإسلامية فاقترح عليّ موضوعا يتمنى منذ زمن أن ينشغل به طالب نجيب كما قال، وهو «فلسفة الجمال في الإسلام».. أعجبنى الموضوع ومضيت أضع يدى على أطرافه قبل طرحه على مجلس الكلية.. وفي تلك الأثناء تقدمت بعدد من القصص القصيرة إلى المجلس الأعلى لرعاية الشباب والثقافة الجماهيرية والجامعة ونادي القصة، ففازت القصص بالمراكز الأولى في معظم المسابقات.

كنت قبل ذلك أعتزم ـ من حبي للفلسفة ـ أن أجعلها طريقي وأن أجتهد لعلى أسهم فيها بنظرية فلسفية عربية تعيد مجد العرب في الماضي، وتضعهم جنباً إلى جنب مع أسماء كبيرة حازت المكانة العالية التى لاتدانيها أى مكانة مهما كانت عظمة بعض ما أنجزه السياسيون في حياة الشعوب، فأرسطو وهيجل وكانت وسارتر وغيرهم أصحاب دور فكرى بالغ التأثير، وأيا كان رأى البعض في الفلاسفة، فالدنيا في رأيي المتواضع تتوجه ـ أرادت أم أبت ـ إلى حيث تشير أصابعهم.

فازت قصصي في المسابقات وكان قد امتدحها مندور شيخ النقاد، وكذلك القط وأنور المعداوى الذين التقيت بهما في مقهى عبدالله، نشرت أول قصة على نطاق واسع عام ١٩٦٦م وفي العام نفسه نشرت أول مقال عن دريني خشبة رائد الثقافة المسرحية.. عندئذ استولى عليّ إحساس بأن الأدب هو طريقي والقصة

والرواية هما الأنسب والأكثر ملائمة لروحي وفكري.. لذلك أقنعت نفسي بأن أسير على درب القصة ومن خلاله أمارس الفلسفة بقدرما يتيح ذلك الفن القصصي.

تدريجيا وعبر العديد من المواقف واللحظات المصيرية الخاصة بي وبالوطن والناس، أدركت أو أوشكت على الإدراك أنه لا أحد مخير إلا في أقل القليل وأنني حر فعلاً لكن في إطار العناية الإلهية وبالصدام مع الآخرين.. صدام التوقيت والمصالح والأفكار والأهواء بل الأحلام والآمال، وفي ضوء المشاعر والأحاسيس المركبة والموروث والظروف. الآخرون هم قيودي وليس الله.

أنت حر وسط كم هائل من المحيطين بك والمختلفين معك، الوسط الذي تتحرك فيه وتود أن يمضي فيه قدمك بحرية كاملة يحتشد بالآخرين.. وكل فرد يحاول تحقيق وجوده بما يتعارض في أغلب الأحيان مع وجودك وأحلامك، فماذا يتبقى لك من حرية حتى لو لم تتدخل الأقدار وتردك أو تقزمك أو ترفعك أو تحرمك أو تأمرك بحمل حجر سيزيف والصعود به إلى أعلى قمة في الجبل ؟

أمنت بشكل يقترب من اليقين، ولا يقين هناك إلا بالله والموت، أن الله ينقذ أكثر مما يعاقب، يرحم أكثر مما يقيم الحد.. المخلوقات هي التي تقيد بعضها، وتتغير مع الأيام والظروف وسيلة الصعود والخروج عن مسار القطيع.. القوة أحياناً تحقق ذلك، وقد يستطيعه المال، وأحياناً العلم وقد يفيد الذكاء والدهاء، وربما ينفع الأهل أحيانا أو العلاقات والنفاق، ويقلل الكثيرون من فضل القيم في تحقيق الأهداف، لكنها تتميز مثل العلم عن كل وسائل الصعود، بأنها الأقل تكلفة والأكثر قربا من النفس العزيزة اللوامة الساعية للخير، وبالطبع الأكثراستحقاقاً لرضا الرب الرحيم، ومن ثم فهي الأقرب إلى تحقيق السعادة لمن تعود أن يرضى.. جعلنا الله منهم..

الغريب أني بعد عشرين عاما اكتشفت أن نجيب محفوظ كان يعد رسالة ماجستير تحمل العنوان ذاته «فلسفة الجمال في الإسلام» أوائل الثلاثينيات وتوقف لنفس السبب، الميل للأدب.

الرجل

يجرى العمل على قدم وساق فى تصوير مسلسل تليفزيونى من إخراج فايز حجاب فى الإسكندرية.. ذهبت مع فريق العمل، مراقبا ماليا للإنتاج، الوكالة العربية للسينما التى يرأسها أحمد المصرى هى المنتج المنفذ لعدد كبير من المسلسلات والسهرات التليفزيونية باستخدام أفلام سينما قبل أن يستخدم التليفزيون كاميرات الفيديو، كما كان باستديو مصر استديو الصوت الوحيد فى مصر برئاسة نصرى عبدالنور، ولم يكن باستطاعة أم كلثوم وعبدالوهاب وعبدالحليم وغيرهم من كبار المطربين تسجيل أغنياتهم إلا فيه، وكانت المناسبات عديدة للتعرف على هذه الشخصيات الاستثنائية، وكنت قد تعرفت على عبدالوهاب عام ١٩٦٢م عندما وافق على أن يلحن لعبداللطيف التلبانى أغنية من تأليفى، وتعثر المشروع إذ حدث مايغضب عبدالوهاب من التلبانى.

زارنا أحمد المصرى فى الإسكندرية، واشتكى له المخرج والفنانون منى، فقال

- الوكالة لاعلاقة لها بكم، والمدير المسئول عن كل شىء هو فلان.

تمثلت معظم المشكلات فى ابتزاز الشركة بشتى الوسائل.. الممثل يوافق فى البداية على العقد ويصور عدة أيام.. ثم يدعى المرض ويعطل التصوير، وتتكلف الشركة الكثير، ويعترف للمخرج بأنه لن يحضر التصوير إلا بعد تغيير العقد إلى الضعف، وعند سؤالى أرفض بشدة فيجن المخرج، وقد أمكننى حل هذه المشكلة حلاً جذرياً.

فى اليوم الذى حضر فيه المصرى، انتهى التصوير بالاسكندرية، وكان علينا استكماله فى مرسى مطروح صباح الغد على أن يكون معنا «كلب عزيز» وهو كلب بوليسى ضخم وماهر جداً فى اقتفاء الأثر وله خبرة، وكان صاحبه عزيز.. ممثل ثانوى دائم الظهور وأجره فى اليوم عشرة جنيهات وقد اشترك الكلب فى التصوير بالقاهرة بأجر يومى عشرين جنيها، أى أغلى من صاحبه، وفوجئت به يطلب أجراً فى اليوم خمسين جنيها.. طلب منى المخرج منحه ما يشاء حتى لايفسد التصوير.. قلت إننى لن أدفع أكثر من أجره الذى حصل عليه قبل ذلك.. أصر صاحبه فرفضت .. عاد الممثل وكلبه إلى القاهرة.. وصرخ المخرج وراح يشكو للمصرى الذى عاد إلى التأكيد بأنه ضيف، والمدير المسئول فلان.

تحرك الجميع إلى مرسى مطروح، وطلب منى المصرى الركوب معه فى سيارة

الشركة المخصصة له.. الطريق صحراوي مقفر وطويل.. مضينا نتحث كالعادة في كل شيء تقريباً وكان قد عمل حسابي في الطعام والشراب وخطط لركوبي معه من البداية.

سألني عن هند وعن موعد الزواج، أجبته بأن الموضوع يحتاج إلى وقت ومصروفات كثيرة وكل شيء بأوان.. أبدى استعداده للمعاونة أيا كانت.. شكرته وطمأنته.

مال بنا بسرعة إلى طريق السياسة، فسألني عن رأيي في قبول عبدالناصر مبادرة روجرز.. قلت:

ـ خطوة ذكية سببت حرجاً لأمريكا التي كانت دائماً تعتقد أن عبدالناصر دون تراك، وأنه ضدها على طول الخط.

ـ أنا أيضا معجب بهذه الخطوة وقليل منه ما يعجبني.

ـ أنت دائماً غير راض عنه.

ـ تريد أن أرضى بالخطأ.

ـ يا أحمد بك لا يصلح..

قاطعني:

ـ ثانية واحدة.. هات يا صالح.

فتح السائق ثلاجة كانت إلى جانبه، وأخرج علبتي عصير أخذتهما منه وسرعان ما قال المصري:

ـ اتفقنا على أننا جميعا سواء يا صالح.. صح.

قال صالح:

ـ صح.

مد يده وأخذ علبة عصير وتجرعت علبتي دفعة واحدة وقد جاءت في موعدها بالضبط.

ـ أكمل يا فؤاد.

ـ يا أحمد بك من يود الحكم على شخص فلابد أن يعرف فلسفته.

ـ هل هذا الكلام لي؟.

ـ إنه في المطلق كقاعدة.. ونحن في مصر حتى كبار المثقفين لانبحث عن الفلسفة لنقارن الفكر بالتطبيق.

ـ نحن نتحدث يا فؤاد عن أخطاء تاريخية ثقيلة مثل اليمن وإغلاق مضيق تيران، مثل الوحدة مع سوريا مثل الصدام مع أمريكا، وقبل هذا جميعه عدم السعي على أي مستوى وبأي وسيلة لتنفيذ المبدأ المهم من مبادىء الثورة وهو

تكوين حياة ديمقراطية سليمة، هل قرأت تروتسكي؟ مشكلته أنه كان لايريد الثورة في روسيا فقط، لكنه كان يريد ثورة تشمل العالم أجمع وهذا ما يوفر المناخ الملائم للأخطاء.

ـ هذه أخطاء طبيعية لأول حاكم مصري بعد آلاف السنين وخاصة أنه كان محتشداً لوضع مصر على خريطة العالم المعاصر، وتعويضها بسرعة عما فاتها.

ـ كان يتعين وضع أولويات، بحيث تأتي كل قضية في موضعها مع التخطيط الجيد لكافة العوامل المؤدية لنجاحها.

ـ لو فعل ذلك لما أمكنه أن ينجز شيئا.

ـ وهذا ما حدث بطريقته.

ـ تأميم القناة والسد العالي والتعليم والمصانع وإخراج الإنجليز والمساعدة في تحرير شعوب كثيرة من العالم، والكرامة و....

ـ لا ينكر هذا كله إلا جاحد، لكن الخسائر في المقابل كثيرة، يكفي فخ اليمن وفخ ١٩٦٧.

ـ أمريكا وانجلترا كالعادة.

ـ لماذا أعطاهما الفرصة، ودخل المصيدة؟

ـ كان يؤمن بأن حماية تراب مصر تقتضي استقلال الدول العربية جميعا، ولن نهنأ بحريتنا ولن نبني طوبة إلا ضمن منظومة عربية.

ـ إذا لم يكن يعلم أن هذا مستحيل فتلك مصيبة.

ـ ولماذا تعتبر الوحدة خطأ؟

ـ أي سلوك لا يقوم على دراسة خطأ وقد يصبح جريمة بقدر الخسائر.

ـ والهدف الكبير.

ـ الغاية لاتبرر الوسيلة ولاتبررها.

ـ بمعنى.

ـ مهما كان الهدف عظيما فلابد أن تكون الوسيلة أيضا عظيمة.

ـ البعض يحاسب عبدالناصر على الخسائر فقط، فهل هذا من الإنصاف؟

ـ لست منهم على كل حال.

ـ أحمد عرابي بكلمة «لا» فقط يحتل مكانة عالية رغم أن الانجليز احتلوا مصر بعدها أو بسببها، وعبدالناصر كافح عشرين سنة والبعض يتنكر له بسبب النكسة، سعد زغلول لم يصنع ثورة، بل صنعها الشعب من أجل إطلاق سراحه، وعبدالناصر هو الذي صنع الثورة، ومع ذلك تماثيل سعد زغلول في كل مكان.

ـ حاسب.. حاسب.

تنهدت ثم قلت.

ـ جيفارا ماذا فعل بالقياس إلى ما فعله عبدالناصر؟.

ـ جيفارا قاد كفاحاً مسلحاً.

ـ جيفارا حمل بندقية وانطلق في الغابات، ولم يواجه مباشرة مشكلات الملايين، عبدالناصر كان يعمل على مستوى منطقة كاملة من المحيط الأطلنطي إلى الخليج.. كان يسعى لنهضة شاملة، وليس مقاومة محتل.. جيفارا ذهب إلى الكونغو في أفريقيا وترك بلاده، وقارته كلها.

ـ لأنه رمز.

ـ نحن لانعرف كيف نقرأ التاريخ ونقيم التجرب.. نحن بالعاطفة نحكم وبها نتعامل.

ـ الحكم على عبدالناصر ليس الآن ولكن بعد اكتمال مشروعه.. إذا كان هناك مشروع.

ـ مشروع عبدالناصر واضح ويحتاج ضبط ومساندة، وتظل أمانيه للشعب رائعة.

ـ أكثر من رائعة يا فؤاد.. ولكن هناك سبل.. أولا.. ليس وحده الذي يحقق هذا، ثانيا لابد من التعمق في دراسة الظروف لأنك لاتبني في الفراغ أو في الصحراء أو وسط الأحباب والأصدقاء، من قال إن الحكام العرب جميعهم كانوا يحملون له الود، أو يحملون ودا لأي رئيس آخر صاحب رؤية مجددة وجريئة.

ـ صحيح.. لقد كان الأعداء في كل مكان وتحت كل منضدة.

ـ لاتتصور أن أحداً يرفض أحلام ناصر، إنها أمل كل مواطن عربي عبر قرون، لكن كيف يتسنى هذا؟.. هل نعلم أن ٦٧ تأخرت كثيرا، فقد كانت أمريكا منذ ١٩٥٧ تغلي غضباً منه، حتى في عام ١٩٥٦، كانت تود أن تشارك في العدوان على مصر، لكنها فضلت أن لاتسمح لانجلترا وفرنسا بمشركتها في الوليمة، ومضى ناصر يبني، ويصعد وأمريكا تستعد لابتلاع الشرق الأوسط منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.

ـ أنا أنظر إلى عبدالناصر بوصفه صفحة مهمة جداً من التاريخ المصري والعالمي حرك فيها الماء الراكد، وأيقظ الناس.. إن كل ما جرى من تقدم ـ في اعتقادي ـ على طول البلاد العربية وعرضها نتيجة حتمية للحركة الناصرية، إما استجابة لها أو خوفا منها، سواء التعليم أو السعي لتحقيق العدل الاجتماعي العمران.. التوجه إلى التصنيع، وسوف يتعاظم كل ذلك.. عبدالناصر كان وطنيا أكثر من اللازم، وخائفا على الوطن العربي أكثر من اللازم ومتعجلا النتائج.

ـ عظيم ولكن.

قاطعته بجرأة لم يعهدها:

ـ أرى أن السبب المفصلي أو المحوري الذي أفضى إلى الكثير من السلبيات هو غياب الديمقراطية.

ـ بالطبع، لأنها تصحيح وتشرك الآخرين في كل الأمور، والآراء المتعددة ترشد الحكم والقرار.

ـ ومع ذلك أرى أن الحلم الناصري الكبير كان مطلوباً كي لاتقل الأجيال القادمة أقل منه.

ـ الصهاينة على القناة وعلى خُمس أرض مصر ويستطيعون بلوغ أي بقعة فيها في غضون ساعة

ألقى عليّ دلوا من الماء البارد.. إنها الحقيقة.. قلت في شرود وألم.

ـ لن يطول هذا الوقت.

ـ بل سيطول.. أنا أعرف لعبهم، ولمجرد بناء حائط الصواريخ، قدموا مبادرة روجرز، عندما يجتمع الصهاينة مع الأمريكان، فلا تتفاءل أبداً، وهذا الثنائي سيمزق العالم أجمع وليس الشرق الأوسط فقط.

ـ بل إني متفائل، لأن الجيش لا ينام الليل، والجنود يتدربون، ويعبرون ويقتلون ويأسرون.. حالة مختلفة تماما عن ذي قبل.. دخلنا في الجد.

ـ الحرب الشاملة بين الدول أكبر بكثير من حرب العصابات.. ومائة جندي يعبرون كل ليلة لن يحرروا سيناء.

ـ بل سيحررونها، لأن ماحدث في ٦٧ لايمكن أن يتكرر ويكفي أن قواد الجيش الآن غير من سبق.

توجه بحديثه إلى السائق.

ـ هل نسيتنا يا صالح؟!

ـ معقول يا أفندم؟!

ـ انزل نور شاي؛ كي يحلو الكلام.

التفت إليّ وقال

ـ فكرت أن أكلمك في موضوع عدة مرات ولم تتح الفرصة.

ـ تفضل.

ـ لازم تبطل رومانسية، منذ عرفتك وأنت كما أنت.. الحياة تتعقد وكل شيء ينضج، وأنت مازلت بقيمك الأولى.

ـ القيم ليست رومانسية.

ـ حسن ظنك بكل الناس.. أليس رومانسية؟.

ـ ليس في كل الأحوال.

ـ بل ألاحظ إنه في كل الأحوال.. هل تتصور أن هذا عيبك الوحيد؟.

تمهلت قليلا ثم قلت ـ الممثل صاحب الكلب مثلاً الذي يريد أن يحصل على أجر خمسين جنيها في الليلة بدلاً من عشرين. أليس محاولة كبحه عن الطمع واقعية؟.

ـ هذه شطارة محاسب وليست واقعية. بالعكس إنها رومانسية لقربها من المثالية.

ـ الرومانسية من أهدافها محاولة تغيير الواقع والسعي لتحقيق مايجب أن يكون.

ـ الواقعية لها نفس الهدف ولكن في إطار الظروف المتاحة. لذلك تتحطم في الغالب أحلام الرومانسي.

ـ لكنها مطلوبة لكي يسعى إليها الواقعي. فما أجمل أن يتزوج الواقعي الرومانسية!

ضحك طويلاً ثم قال

ـ طبيعي أن تحب عبدالناصر فأنت مثله.

رشفت رشفة من كوب الشاي وقلت له:

ـ اكتشفت من كلامنا الآن فقط أنني رومانسي تزوجت واقعية.

قال بثقة:

ـ لاتتعجل الحكم.

تحول إلى الصحراء يحدق فيها طويلا وكأنني غير موجود.. تذكرت إنه عبر في مناسبة سابقة ـ عن عدم رضاه عن زواجي من هند.. صرفت الخاطر بحدة.. وشاركته تأمل الصحراء من جهتي بينما القمر المتألق حولها إلى نهار حالم مشوب بزرقة ناعمة.

ساد صمت لحظات ثم قلت.

ـ أحيانا أتصور أن هناك ارتباطاً بين الرومانسية والكرامة.

شرد وأحس بغرابة الربط. وأخيراً قال:

ـ لا أتصور هذا.. فليس كل رومانسي معتد بنفسه.

ـ اسمح لي أن أوضح بصورة أخرى أو بسؤال.

ـ تفضل.

ـ هل الرومانسي يمكن أن يكون نفعياً؟.

ـ في العادة.. لا.

ـ عظيم.. فهل النفعي يمكن أن يكون ذا كرامة؟
شـرد ثم قال:
ـ في العادة.. لا.
ـ عظيم.. إذن طبقاً لقياس أرسطو.. الرومانسي في العادة ذو كرامة.
ـ أشك في هذا القياس.
ابتسمت منتصراً
ـ أظن أنك لا تشك ولكنك بحاجة إلى فرصة للتفكير.
ـ أنت تريد أن تؤكد أن كرامة عبدالناصر وحساسيته وراء أفكاره.
ـ بالضبط..
قال: لايجب أن يتحمل الشعب نتائج صفاته الشخصية.
قلت: قدرنا .
قال: الديمقراطية تغيره.
شردت لحظة وقلت له
ـ هل لازلت ناقما عليه لأنه سجنك؟
ابتسم متصورا أنى أهاجمه.. وقال
ـ كنت أود حماية الحلم، وقد فاته ذلك، كان مشغولاً بالسماء ونسى الأرض، : علاقة لسجني برأيي في أدائه وقراراته، ومعظم من سجنهم رجاله غير ناقمين يه.. لأنهم وطنيون، والوطني الحق يحب قرينه ولو أخطأ.. الوطني الحق يختلف لايكره.
ـ كان يود أن يهبط بالأحلام لتكون في متناول الناس.
ـ ليس من السهل زراعة أي محصول في أى أرض.
ـ فهل أنت ممن يرون بعد أن حدثت كارثة ١٩٦٧ أن كل شيء وهم وخدعة.
ـ مستحيل.. هذا جهد شعب وإنجاز أمة حتى لو كان في الأغلب نتاج تفكيره عده، ولكن ماحدث في ١٩٦٧ نتيجة عدة أخطاء مركبة، سببها الأول إبقاؤه على بدالحكيم.
ـ أظن أنه شاخ.
ـ هو السبب.
ـ والأعداء.
ـ كان له دور كبير في صنعهم.
ـ إنها النفوس المريضة.
ـ دعك الآن من السياسة، وقل لي دون أية حساسية.. كم امرأة نمت معها؟

كنت أرتشف الشاي، فسال من فمي الذي فتحته في دهشة، وتحولت إليه أحدق.. لا أدري ماذا أقول.

حاولت أن أرتب كلامي وأزوقه وكان عليَّ أولا أن أشغله عني بأي فكرة.

فجأة ارتفعت السيارة وانخفضت بشدة كأنها تسقط في بئر، فانتفضنا رعبا ثم مالت بقوة.. طار كوب الشاي البلاستيك من يدي ويده .. صرخت وأنا أتشبث بالمقبض والكرسي الأمامي

ـ استر يارب.. استر يارب.

انقلبت السيارة وارتطمت رؤوسنا بالسقف، ثم اعتدلت وأصابني ما يشبه الإغماء، وعادت تنقلب ثم اعتدلت وانكفأنا على الكنبة الأمامية.. صالح الوحيد المنتبه فيده كانت قطعة من المقود، أطفأ المحرك، خرج بسرعة وفتح الأبواب، وقف يتأمل الوضع والأرض بحثا عن الأسباب.

حمدنا الله على الحالة الطيبة التي وجدنا أنفسنا عليها، كدمات بسيطة أصابتنا، الصدمة الجسدية والنفسية كانت نتيجة طبيعية.. خرجنا ولفحنا الهواء القوي الصافي.. الظلام دامس.. كان متبقيا على نزولنا إلى مياه البحر المتوسط متر واحد.

قال صالح:

ـ قلبتنا عجلات كوتش قديمة تركها أصحابها.

لم أرد أن أعترف لأحمد المصري بأنني لمحت صالح ينام وكان آخر مرة رأيته يخطف الإغفاءات قبل أن يقول له المصري

ـ أنت نسيتنا.

أدركت عندئذ أن المصري نمر وقد لمحه، ولذلك لم أدهش عندما قال

ـ تعال يا فؤاد نتمشى قليلاً في هذا الجو الرائع حتى يطمئن صالح على السيارة.

قال صالح بحماس:

ـ كله تمام يا فندم.

ضحكنا معاً وقلنا حتى أنت ياصالح تقول نفس العبارة الكارثة.

كانت عجلات الكاوتش على الرمال بعيدة عن الأسفلت بنحو مترين. إذن فقد نام ثم زحف عليها، وبعدها كانت الحفرة بعمق متر في أربعة أمتار عرض، أي أن الله ستر وستر.

لو لم تنقلب السيارة كان ضروريا أن تجيب على سؤال المصري، فماذا كان جوابك؟

أثق أنك كنت ستتعلل بأى شىء آخر كى تهرب من المواجهة.. هل يسىء إليك إذا حدثته عن بائعة الفجل التى حلت فى عينيك وطلبت إليها أن تصحبك إلى الشقة، فى مقابل ثمن «مشنة» الفجل كلها؟، وصعدت معك بعد تمنع عدة أيام، وطلبت منها أن تخلع ملابسها فخلعت ثم سحبتها إلى الحمام ومضيت لنحو الساعة تدعك فى جسمها بالصابون المعطر والماء الساخن وألبستها بيجمتك على اللحم، واستهواك جسمها واستنفرك.. لكنك فى آخر لحظة وبعد أن تعرت تحت الملاءة وتمددت وشرع دفنها يغزوك.. أمرتها هامسا أن ترتدى ملابسها وتذهب ومنحتها أكثر من ثمن «المشنة».

هل كنت ستحكى له قصة تلك الفتاة التى وقعت فى غرامك بعد أن أنقذتها من مجموعة من الشباب فوجئت بهم فى بيتك، دعاهم مخلص شريكك فى الشقة معتمداً على وجودك فى بنها، تلك الشقة المطلة على النيل بجوار مستشفى الرمد فى الجيزة، وفى مواجهة سينما شهرزاد..

يومها ثرت بشكل مباغت فى وجه مخلص حتى لقد فزع من هياجك.. طردتهم جميعا.. وقلت لمخلص ألا يعود مطلق وسوف ترسل له عفشه القليل على أى مكان يحدده، ولاتطأ قدمه المكان مرة أخرى.. ثم ماذا حدث؟.

جاءتك الفتاة بعد منتصف الليل وكنت تقرأ فى البلكونة وطلبت أن تبيت لديك فليس لها بيت.. وعرضت نفسها عليك وألحت وأنت تقاوم.. لا رفضا لها ولكن حتى لاتحس إنها تعطيك مقابل إنقاذك لها ولم يكن إنقاذا بالمعنى الدقيق.. كانت البنت صغيرة، ولم تكن عذراء.. واصلت محاولاتها حتى أنها قبلت يدك.. أو حاولت فيما أذكر.. وأخيراً تجاوبت معها حتى توقف ضعفها وخضوعها..

هل كان يمكن أن تقول للمصرى إنها ظلت لك وحدك نحو عام وشهور.. وأقسمت ألا يلمسها أحد غيرك حتى اختفت وأنت فى أمس الحاجة إليها لتنقل إلى جسدها بعض غضبك الذى بدأ ينهمر؟ وهل كان يمكن أن تبرر له سلوكك وأنت مرتبط بزوجة؟..

هل كان يمكن أن تحكى له حكاية الفتاة التى رأتها معك صاحبة البيت بوشاية من البواب فطردتك؟..

هل كان يمكن أن تذكر له شيئا عن الفتاة التى باتت معك الليل وأذهلتك جنسياً ثم سرقت كل....

ـ يكفى أيتها الشريرة.. الوقت غير مناسب وروحى منك فى مناخيرى.. أف.. كيف أتخلص منك؟.

لن أستطيع أن أدعو خالقك.

مرسى مطروح

وصلنا مطروح فى نحو الثالثة صباحاً.. صعدنا إلى الغرف وأخذت حماماً تاريخياً، كان لابد منه ليغسل أشياء كثيرة.

ما أن جففت جسمي حتى تذكرت المشكلة التى تواجهنى من الآن وهى توفير كلب بوليسى مدرب بدلاً من كلب عزيز المتمرد.. كان الموقف حرجاً للغاية، كيف يتسنى لى الحصول على كلب فى هذه الصحراء.. مضيت إلى الشرفة، جلست ثم نهضت.. جلست ثم رحت أذرع الشرفة المطلة على بحر يقبع فى الظلام كجثة هائلة. بحثت عن القمر حتى وجدته مخنوقاً وراء كتلة معتمة من الغمام.

أنوار شاحبة تظهر من هنا وهناك، لا تبدو بادرة أمل.. التصوير سيبدأ فى العاشرة، يبدو أن عنادى سيتحطم على صخرة الموقف المتأزم.. لا أريد أن أندم بسبب التزامى ومواجهتى للابتزاز والاستغلال.

فكرت أن ألجأ إلى المحافظ أو مديرية الأمن لمساعدتى فى حل المشكلة التى أدور فيها مثل فأر فى مصيدة.. وحدى المسئول عن الأزمة.. وحدى المسئول عن حلها.. السينما لاترحم وكذلك التليفزيون، تكلفة اليوم الواحد الذى سوف يتعطل بسبب كلب عدة آلاف من الجنيهات.. فى ذلك الزمن.

أسير فى الشرفة، تتسافر نظراتى مع البحر الأبيض الذى كان فى هذا الوقت أسود.. تظهر فى نهاية الأفق أضواء كأنها شكات دبابيس تثقب الجدار الهائل للظلمة.

فى الرابعة والنصف لبست ونزلت إلى المسجد فصليت الفجر ودعوت الله أن ينصرنى ويحمينى من المتربصين.. عدت إلى الشرفة بعد أن حملت كوبا من الشاى بنفسى، فقد كان عمال الكافيتريا ينظفونها.. كانوا قد أعدوا الشاى لأنفسهم، فأكرمنى أحدهم بكوب.. أخذت أشربه باستمتاع إذ انقضى على آخر كوب نحو أربع ساعات، وكان قبل الحادث مباشرة.

ها هو النور الرمادى يتسلل بصعوبة إلى الكون.. الحياة تتمطى فى كسل.. لم يظهر مخلوق بعد.. ليس إلا حركة بعض المصلين العائدين. البحر يكشف عن

موجاته البعيدة العالية، والتى تتقلب بعضها فوق بعض كاشفة عن أعماقها البيضاء الرغوية.. هياكل السفن العملاقة تظهر عن بعد كأنها لاتتحرك.. وجوهها جميعا تمضى نحو الشرق حيث الاسكندرية.. ليس من المقبول أن أكون فى مطروح ولا يتذوق جسدى مياهها الزرقاء الصافية.

ألقيت ببقايا الشاى فى حلقى والكوب فى السلة، خلعت ملابسى جميعا، ارتديت المايوه، وأسرعت إلى المياه التى مشيت على شاطئها بحذر عدة خطوات لأتكيف مع برودتها.. قذفت جسدي وضربت الماء سابحا نحو خمسين متراً في العمق، ومثلها عرضا ومضيت أغوص وأطفو، أغوص طويلا وأسبح تحت الماء ثم أطفو، إلى أن عادت تهاجمنى مشكلة الكلب.

سأعانى دون شك من البيروقراطية إذا لجأت إلى المحافظة أو مديرية الامن، ولا سبيل غيرهما.. تنهدت باستيء.. الساعات تمر والمواجهة قاسية والموقف بكافة تفاصيله سيكون محتدما تحت سمع وبصر المدير الذى تعود أن يتحدث عنى بثقة وبأننى اكتشافه الذى يعتز به، فكم اعتمد علىَّ فى الملمات، وحالفنى التوفيق بفضل الله وبفضل الإدارة التى تعلمتها منه.

عدت أسبح كأنى أهرب.. نعامة تدفن رأسها وجسدها كله في الرمال، كلما غطست وبقيت تحت الماء طويلا وطفوت، تمنيت ألا يكون الصباح قد أطل، ونظل لمدة طويلة فيما بين الفجر والصباح.. فى المنطقة الرمادية حيث يثقل النوم ويتشبث بفرائسه.. ولاتكون عجلة الحياة قد دارت بعد أو حتى تأهبت لذلك إلا فى حالات نادرة.

لم أستطع أن أكلم هنداً طوال الأسبوع الماضى، سوف أكلمها إذا انحلت مشكلة الكلب.. لكم طرأت مثل تلك المشكلات دونما سابق استعداد.. يظهر أمامى فجأة محصل القطار الذى لا أدرى كيف فتح علىَّ دورة المياه مع أنى أغلقت بابها بالترباس من الداخل، كنت قد اشتريت بمصروفى كله كتباً.. لقد دفع الرجل الباب عدة مرات، فإذا الترباس الفاشل يتداعى مع الزلزلة التى تعرض لها على يد الرجل لفحل.. وقف بالباب ورآنى لا أفعل شيئً إلا انتظار مروره، سألنى عن التذكرة.. كعادتى قررت الاعتراف:

ـ لم أقطع تذكرة.

ـ أقطع لك.. هات سبعة قروش ونصف.

ـ لا أحمل مليماً واحداً.

ـ إذن أسلمك فى محطة طوخ ويرافقك العسكرى إلى مباحث السكة الحديد،

ومنها إلى النيابة فالسجن.

ـ هل تريد الحق أم أبن عمه؟.

ـ أريدهما معا.

ـ اشتريت بكل ما معى كتباً.

فتح المحصل الضخم إلى أقصاهما عينيه ورمقني بشراسة وتهديد ثم مد يده التى مضت تتجه نحوى كالمدفع ووضعها على رقبتي والتفت أصابعه حول عنقي، خشيت أن يضغط عليها فأموت خنقا مقابل التذكرة، ونسيت أن هذا لايحدث أبداً، ونسيت أن هذا ليس من حقه ولامن واجبه، ومع ذلك ركبنى الرعب من هذا الكائن كث الشارب طويل الأنف، سميك النظارة.. واسع الفم.. كبير الأسنان.. شعر صدره يطل بوحشية من فتحة البدلة الكاكى.

فجأة وبعد أن قاربت على الوفاة، ضحك عالياً، وجرنى قائلا:

ـ مادمت اشتريت كتباً فهيا اختر أحسن كرسى فاجلس عليه.

مضى يقهقه، وأنا لازلت أرتعد ومؤكد كان وجهى أشد اصفراراً من الكركم.

عندئذ.. أى عندما تحرك المحصل عابرا الممر الصغير المختنق المحاط بالجلد الأسود ويربط بين العربتين ماشيا فوق الدواستين الحديد وأنا أرقبه حتى لايعود، لمحت كلباً يشبه كلب عزيز.. مستحيل.. إنه هو.. على بطنه بقع بنية غامقة وجسده بنى فاتح.. يقفز ويلف ويدور حول صاحبه.

قفزت فرحاً وأسرعت إلى الشاطىء، لمحنى الرجل أتجه نحوه باندفاع، لا أحد غيرى فى الماء.. بدت الدهشة على وجهه، وتوقف وقرّب الكلب منه.. وقفت أمامه أتصبب ماء وحياء.. تتعثر الكلمات على لسانى.. الرجل فى نحو الستين، في مثل طولي، لكنه يبدو قوياً ومهندما، وله وجه طفل برغم الشارب الأبيض.. فهم أخيرا وابتسم، كان يحسبنى أداعبه أو أتسلى ثم هز رأسه موافقاً وهو يمسح على رأس نورمان.

مضيت أنظر إلى نورمان.. لايمكن أن يكون نورمان، إنه لاشك ركس كلب عزيز.. قلت له إن أى مبلغ يطلبه سندفعه، قال: لايمكن قبول أى مليم.. المهم أن تطعموه جيدا.. قلت له وأنا فى غاية الانشراح

ـ سنطعمه لحم غزلان وديوك رومية ونعام وفاكهة، كريز إذا أراد.. سنزوجه و.... ضحك الرجل وهو يقول:

ـ لا.. لا شيء من هذا.. المهم أن يقوم بالواجب، ويكون عند حُسن ظنكم.

خطر ببالي بسرعة ثور جارنا الذى كان بالقرية يضاجع البقر لتحمل، وكان

صاحبه يقول إذا سألوه عن الأخبار .. لقد قام بالواجب.

سألته عن قدراته ومواهبه ومدى إمكانية توجيهه أثناء التصوير.. قال

ـ أحيلت إلى التقاعد وأنا عميد بالشرطة وكان نورمان معي في الخدمة. وفوجئت بهم يقررون إحالته إلى الاستيداع. طلبت أن يرافقني إلى بيتي لأني أحبه.. هو ولدي بحق. أنا وزوجتي نعتبره ولدنا فلم تنجب.

كانت تلك اللحظة من أجمل لحظات حياتي.. لحظة مثل شجرة باسقة كثيفة الأغصان، عامرة بالثمر، غزيرة الورق، تفرش الظلال في الصحراء، لحظة رائعة ونادرة، لحظة ملهمة، تحمل رسائل كثيرة، وتشرق على صاحبها والعالم وتنشر رايات البهجة، لحظة ميلاد عمر جديد وصغير، لحظة عبور نفق مظلم تتعرض فيه الروح لاختبار يمس الكرامة والمصير.

ذهبنا في العاشرة إلى التصوير. لم يحضر العميد بعد، طلع عليَّ المخرج قائلاً:

ـ كيف الحال.. أين عزيز وأين الكلب؟!.

ـ دقائق ويكون هنا.

ـ هل اتصلت به؟.

قلت بانكسار: لم يكن هناك مفر.

قال منتصراً: وستدفع له ما يطلبه.

ـ لا حيلة.

حضر العميد في هذه اللحظة والكلب معه.

قال المخرج:

ـ أين عزيز؟.

ـ يضع حقيبته في الفندق.

نظر إلى الكلب، فسألته

ـ ... هل أنت راض يا فايز بك؟.

ـ كيف لا أرضى.. المهم أن تتعلم، لازالت تنقصك خبرة.

تم التصوير بالكامل، وعلى خير وجه.. سأل فايز عن عزيز. قلت له أمام الجميع وبينهم أحمد المصري:

ـ إنني لا أخضع للابتزاز، ولا اسمح بالاستغلال سواء من البشر أو الكلاب.

قدمت لهم العميد.. فصفق الجميع.. إلا فايز طبعاً ولا أعرف لماذا ولمن صفقوا؟.

الموت فى أبشع تجلياته

انفجرت الأرض وانطلق منها كائن عملاق يرتدى السواد الكامل وتحيط به هالة معتمة بعرض الامتدادات التي يمكن أن يبلغها البصر والبصيرة والإحساس.. يمسك بيده حربة، صعد إلى أعلى نقطة فى قلب السماء ثم هبط مندفعاً معبأً بكل مافى العالم من غيظ واحتشاد مقيت، ثم أطلق حربته بأقصى مايملك من قوة وقد صوبها إلى أشرف الرجال وأكثرهم وطنية.

دعانى إيهاب الليثى لحضور افتتاح فيلم «الأشرار» في سينما ريڤولى فذهبت أنا ووالدتى وزميلى محمد الحناوى وزوجته وكان إلى جوارنا فى الصف الأول من شرفة البلكون حسام الدين مصطفى المخرج وأبطال الفيلم عادل أدهم وإبراهيم خان وناهد شريف ولم يحضر رشدى أباظة.

اعترضت أمى على الفيلم منذ البداية، قالت. كله نكد وقتل..

كانت تظنه فيلما رومانسيا كتلك الأفلام التى أحبتها فى الأربعينيات والخمسينيات حتى سنوات قليلة مضت.

قلت لها. أنا متأكد أنه سيعجبك.. علينا أن نتابع ونصبر حتى النهاية.

كان الفيلم بلا أى طعم، التشويق فيه ساذج، وتقليدى، فجأة أضيئت السينما بالكامل، والفيلم لايزال على الشاشة باهت الملامح، ظهر من يصرخون فى الناس بكلمات غير مفهومة حتى فهمنا فى النهاية، فتعالى الصراخ، وتدافع الناس هابطين وخارجين.. بعض المشاهدين يسقط مغشيا عليهم والبعض يتعثر فيهم فيسقطون.. الناس يتساندون.. البعض لم يستطع القيام.. رواد الصالة كانوا

الأسرع فى الخروج.. تزحموا عند الأبواب.. اضطراب فى اضطراب.. خبطت أمى صدرها وهى تقول حبيبى يا خويا.

وقفت مذهولا، وعندما هزنى محمد الحناوى لنتحرك لم أشعر بأقدامى.. اخيرا تحركت.. ثم سالت دموع أمى وبدأنا نزحف كالسكارى، كنت أتخيل دخانا يملأ القاعة.. لا نستطيع التنفس.. عادل أدهم لايزال على الشاشة التى نسيها فنى العرض، يقول لرشدى أباظة ـ لو مت ح اقتلك.

لعله ـ فيما أذكر ـ كان يهدده حتى يدله على مكان ثروة مدفونة فى مقابر العلمين، وكان رشدى مصيباً.

لما خرجنا إلى الشارع، كان المشهد عجيب.. بعض الفتيات يسقطن فجاة، السيدات تلطم خدودها.. الرجال يبكون ويتلفتون كأن عصابة تطاردهم.. أشياء تهددهم.. بعض سائقى التاكسى ركنوا السيارات وتوقفوا عن قبول ركاب كأنهم سينظمون مظاهرة ضد الموت.. الصراخ يتعالى فى كل مكان.. الشباب يركضون يريدون أن يعودوا بسرعة إلى بيوتهم قبل حدوث هجوم غامض كسقوط نجم أو شهاب أو تنشق الارض، أو تتفكك العمارات وتنهار.. هناك خلل ما أصاب كل شىء، يصعب تحديده، تذكرت أنه نفس يوم انهيار الوحدة بين مصر وسوريا.

ظلت أمى تنادى أخاها. ياحبيبى ياخويا.. موتوك ياحبيبى.

كانت تحب عبدالناصر حبا لاتحبه لأبيها وأمها.. كانت تستمع إلى كلماته بتركيز شديد، وإذا تكلم أحد فى غير موضوع الخطب، تنظر إليه شذرا فى البداية وإذا استمر تقول له قم من هنا.

جاءت تزورنى فى القاهرة وتعالج أسنانها.. فرحت إذا اطمأننت عليها واختفت الآلام بعد عام كامل من المشكلات التى ينتج معظمها من حفر عشوائى مارسه

الأطباء السابقون.

في ليلة ٢٨ سبتمبر وبعد عودتنا من السينما يطاردنا الخبر المشئوم.. عادت أسنانها أسوأ مما كانت عليه، أصر الحناوى ان نذهب إلى بيته فلم ننم منا أحد، اتصلت بأحمد المصرى.. لم يستطع أن يرد، قالت زوجته: إنه لايكلم أحداً.. اتصلت بعدد كبير من الذين كانوا يعارضون عبدالناصر في كل شيء.. كان أكثر الجميع غضباً منه وكراهية له يبكي ويقول باستمرار "لا يارب.. لا يارب.. مصر يارب.مصر..

عندما عدنا إلى البيت في الثالثة صباحاً مشياً على الأقدام، كانت الشوارع مزدحمة بالمشاة والمتجمعين على النواصي، يضربون الأكف بالأكف.. ووجدنا بواب العمارة العجوز تسيل دموعه على لحيته البيضاء، وقد خلع طاقيته كأنما احتجاجاً.. يقول: أبونا مات.. تيتمنا.. ده أبونا يا ناس.. أبونا كلنا.. لم أر في حياتي أحن منه.. أحن من أمي.. خلاص يا كل الفقراء.. روحوا موتوا.. الليلة ليلة الإسراء والمعراج.. ٢٧ رجب.. صعد الشريف.. أبكانا الرجل.. أبكانا.. لم أكن قد تنبهت إلى ما أشار إليه، أدمانا بكاء.. أدمانا بكاء.

جلسنا في الشرفة نرفض أن نختفي بين الجدران.. أمي تبكي، وجدت نفسها في بيتها فانطلقت لدموعها العنان.. ترى الناس تقف في الشوارع.. الناس كلها لاتريد أن تختفي تحت الأسقف، تريد أن تكون تحت عين السماء.. لاتعترض ولكن ليرى الله حالها، فقد يعود في قراره.

في اليوم التالي اتصلت بالمصري، وعلمت منه أن يوسف شاهين سيصور الجنازة من الطائرة الهليوكبتر، فقلت له تصرف.. لابد أن أكون معه.

شهدت من السماء حفل الوداع الأسطوري.. بحر من البشر، يحملون الصور

ويرتدون السواد، ويذرفون الدموع ويلطمون وينوحون ويطلبون السماح والرحمة. أيها الحبيب الغالي.. تسلم البطن التي ولدتك.. الله ياتزار عليك وانت تقول في عبارة ملهمة "قتلوك يا آخر الانبيا".. الله عليك يا طلعه الرفاعي شاعرة سوريا: هل وزن الأرض بعد موتك باحمال.. مسكينة يامصر.. مساكين يا كل من تنسون ناصر.. يا ألف خسارة على من يختل بأيديهم الميزان فيخلعون عنه أردية الإخلاص والفروسية والشرف، وينظرون إلى أخطائه على أنها جبل، وحسناته مجرد أوراق طيرتها الرياح.. نابليون انتصر كثيراً وهزم أكثر ومع ذلك يقدره الفرنسيون حتى اليوم.. الحساب هناك غيره هنا.

اختطاف

مع نهاية عام ١٩٧١ كانت أسباب الاختناق شبه كاملة حتى أنى حاولت اللجوء للتدخين ، لكنى فشلت .. ارتدت الكازينوهات وعلب الليل وشربت دون إقبال ، لكن ذلك كله لم يستطع اجتذابى ، وكان يسيراً حتى وقت قريب أن أجد بعض المتعة مع بنات جميلات وعذارى من الكومبارس . بعضهن بنات أسر كبيرة أخفين أسماءهن وارتضين التضحية بكل نفيس من أجل السينما .

ضقت تماما بالأوضاع السياسية بعد الرحيل المفاجىء الذى كان هدية لأمريكا والصهيونية العالمية وبعض العرب فتنفسوا الصعداء . تمثيليات كثيرة يعلن عنها النظام الجديد وتصريحات عاجزة ومضطربة ، كل الأمور تمضى بلا رؤية واضحة ، عين فى الجنة وعين فى النار .. المناخ على كافة الأصعدة ضباب فى ضبب . شاركت فى عدة مظاهرات ضد حالة السلم واللاحرب ، فى إحد المظاهرات كانت معى هند وطاردتنا الشرطة والقنابل المسيلة للدموع .

أصدرت الحكومة توجيهاتها بعدم قيام القطاع العام بإنتاج أية أفلام ، فالسينما مسئولية القطاع الخاص .. هكذا أصبح تقريبا كل موظفى هيئة السينما بكافة قطاعاتها بلا عمل . الاستبديوهات تؤجر لمن يريد ويدفع الثمن . لم يتبق بكل منا إلا مرتبه وهو فى مثل حالتى لا يصل إلى ثلاثين جنيها . كنت أحصل ما يقارب عشرة أضعافه بين أجر إضافى وبدل ساعات راحة وحوافز ومكافآت على الإنتاج .. اضطررت لبيع السيارة الخنفساء العجوز .. توقف العمل مع الأفلام والفنانين والسهر والسفر والمرح وجو الفن البديع . تحولت كل مراتع الفن إلى صحراوات يعيش فيها القحط ، وجفت الينابيع وذبلت الزهور .. تسلل تدريجيا طعم الملح إلى آلاف الأفواه .

توقفت كل المجلات .. الشعر . المجلة . الكاتب . الفكر المعاصر . القصة وغيرها .. تقلص النشر فى هيئة الكتاب .. مللت بل شعرت بالتقزز أحيانا

من المنتديات الأدبية فقد زادت فجاة موجة الشتائم والهجوم المجانى .

شعراء وقصاصون أحب إبداعهم جدا ، لكنهم يلوثون الجلسات بالسب المتواصل ، هذا الوزير هلاس ، وتلك الرواية كتبتها عاهرة ، وهذه القصة سرقها الكاتب ابن الوسخة فلان من الكاتب النتن علان .. الكاتب الذى يعتبره الكل من أهم كتاب مصر لم يكتب حرفا مما نشر باسمه .. بل يكتب له فلان ابن .. ورضى بأن تنشر باسم الآخر مقابل أن يعاشره .. الكاتبة «س» كان مقبوضا عليها فى قضية دعارة وبعد أن خرجت ادعت أنها كانت معتقلة بسبب آرائها .. كيف نكذبها دون الرجوع لمباحث أمن الدولة ؟ وهل يستطيع أحد سؤال أسياد البلد .

أذهب إلى مقهى يتجمع فيه عدد من الكتاب نقضى وقتا طيبا فى حوار صاف وجميل حتى يظهر من يعكر الصفو ، أنا لم يمسنى شىء من القذائف إلا فى النادر مثل من قال إنه مؤدب بطريقة وسخة .. أو من قال : لا أعترف بأى حرف يكتبه . إنه لا يشرب ولا يدخن .. هذه المباريات المقذعة بين الأدباء التى يتم خلالها ابتكر عبارات السب بلا رحمة تجعلنى أشعر أحيانا أن سكاكين حادة تمزق أضلعى ، فضلا عن أنى غير متصور أن يلفظ أديب أى كلمة نابية . تبلغ المأساة حدها حين أذكر ذلك لبعض الأصدقاء المحترمين ، فيقول بمنتهى البساطة :

– العيب فيك .. ما يجرى أمر طبيعى وظاهرة صحية .. أنا شخصيا آتى إلى هنا لأسمع الأكاذيب والتدنى .

ويقول آخر

– اطمئن .. الكل أحباب ، ويغادرون آخر الليل دون ضغائن .

أعجبنى فيلم «الأرض» ليوسف شاهين ، لكنه عمق بئر الأسى والغربة .. السينما العالمية تنقذنى .. لم أعد متحمسا للقاء هند ، لكنى ألتقى بها لأننى فارغ . أعانى من الخواء .. هناك رمال متحركة داخل روحى ، ألقت بها الرياح يوما فى أعماقى .. لا طعم لشىء حتى ألذ الأكلات .. لست مشتاقا للأهل فى بنها .. يدهشون لصمتى . أيام سقيمة للغاية . تلك التى تلت ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، ليس لفراق عبدالناصر فقط ، ولكن للتزامن الملعون بين كل أسباب التعاسة والإحباط .. وكم كان غريباً أن تغيب عنى جماليات الموسيقى الفاتنة لبيتهوفن وموزارت ودى بوسى وهاندل .. لا أستطيع

تحملها لدقائق .

أم هند تواصل استنزافي .. المال والوقت والجهد لحساب أولادها .. أسألها عن الأثاث ، لم ينته بعد .. أخيرا سألت النجار ، قال لم تدفع الحاجة إلا القليل .. أسألها عن مصير ما أخذته مني .. نجيب بغموض إجابات لها رائحة كريهة ، وعندما أحاصرها تثور وتدعى المرض . قلبها سيتوقف . يسرع الجميع لإنقاذها وأنا قبلهم.

فى يوم عرضت على هند أن أعطى دروساً لابنة زميلتها .. فى الثانوية وتحتاج إلى تقوية فى اللغة الإنجليزية .. كانت الأسرة موسرة جداً .. فوجئت بجمال البنت ودلعها .. نكون وحدنا دائماً .. تلتصق بى أكثر من اللازم .. تسأل أسئلة خارجة عن المقرر بحجة تدريبها على النطق ، إلى أن قالت مرة :

– أى لف يو ماى تيتشر

فاجأتني وقالت : دو يو ميك إني لف وز سم ون بيفور.

ولم ترحمنى حين قالت : أنا تعجبنى شخصيتك قوى . يا أستاذ..

حاولت إيقافها بشكل مهذب .. لكن أنفاسها كانت تلهب وجهى .. قالت لى

– الحياة أهم من الإنجليزى والحب أهم من الحياة .. مش كده يا أستاذ..

جسمها له سطوة ورائحة وصهد ، أظل طول الوقت أبتلع ريقى الذى لا أجده وأدخل فى بعضى .. تتجاسر وتمسك يدى بكفها الطرية ، وأنا عينى دائما على شفتيها المتوردتين .. أعصابى تلفت تماماً ، فالبنت لذيذة وتحاول فى جلستها ومشيتها وملابسها أن تغوينى .. الأرجح كانت تنوى تدميرى .. رغبتى فيها تتصاعد كل مرة ، لكن هنداً فى خاطرى وكذلك زميلتها ، كما أن سمعتى تهمنى وأنا حساس تجاه ذلك .. ملعون أبو كل هذا .. قررت أن أتنازل قليلاً عن أصدمى وأترك نفسى على سجيتها . فوجئت بهند تقول لى :

– لا تذهب ، اتفقوا مع مدرس آخر وتركوا بقية حسبك معى .

حاولت التلصص بعد ذلك للإمساك بالسبب الحقيقى فلم يصلنى شىء .. انتهت التجربة قبل أن تبدأ . الغريب أن البنت بعد أسبوع اتصلت بى طالبة أن أعود وإنها اتفقت مع أهلها على ذلك . قلت لهند :

قالت : طلقنى .

طويلا تتأملنى أمى كلما زرتهم يومى الخميس والجمعة . ملابسى هى ذاتها تقريبا كل مرة . تسأل عن طعامى ، ولماذا أنا شاحب اللون ، وأين ملابسك الجميلة ؟ وإذا كانت قد بليت أو قدم العهد بها لماذا لا تشترى الجديد؟ .. طول عمرك شيك .

آه يا أمى .. آه.

كل شىء فقد المعنى ، وانعدم الأصدقاء أو توروا ، والأدق تحللوا مثل المعانى .. لم أكن قد فقدت الأمل حتى بعد الهزيمة النكراء برغم الشرخ العميق الذى أصابنى عقلا وروحاً . الإرادة مازالت بعافية وانتهى تقريبا وقت الكلام والتصريحات الطنانة .. دقت ساعة العمل وعلا الإيقاع .. تسلل فيروس الأخلاص والجديدة تغيير قيادات الجيش . معركة رأس العش . القنطرة .. بور فؤاد . تدمير المدمرة إيلات . ضرب ميناء إيلات . معارك بالطائرات .. عبور يومى ثم بناء حائط الصواريخ . لم يعد خط بارليف مانعا مرعبا ولا حتى القناة .. الجنود يتنافسون إلى درجة العراك طلب للعبور والثـأر ثم توقف كل هذا .. مع رحيل الرجل .. كل شىء الآن غارق فى الصمت إلى حد التعفن .

لابد أن أكسر هذا الحصر من أى نقطة .. توصلت بعد حوار متعثر إلى حتمية الزواج .. تحدثت إلى أم هند صاحبة الكلمة .. رفضت الفكرة ، ليس هناك زواج إلا بعد أن يكتمل كل شىء حتى شبشب الحمام وفوطة المطبخ واللمبة السهراية .

بدت هند كأنها متواطئة ومستسلمة لما هو قائم ، فاقدة لعقلها وحيويتها ربما بسبب هيمنة الأم على كامل الوضع . المال والجهاز والأفراد والمكان حتى الهواء ، الأم بالنسبة لعالمى كأمريكا .. جميلة وقوية ومهيمنة وصفيقة ومكشوفة الوجه وعنيدة ولا تريد أحدا على الأرض غيرها وأنا مصر أو العرب .. إننى أهلوس معظم الوقت حتى وأنا نائم . سابح فى الفراغ والضباب .. النقطة الضعيفة فى كل تلك الحلقة الحديدية التى تضيق رويدا رويدا إلى حد إرغامى على الانفجار ، هى الزواج .. نعم .. الزواج .. طعام وراحة ونوم وحب وإنجاب ومتعة وتنفيس وخلق عالم صغير أدخله فرارا من عالم كبير قاس ومعقد .. أفتقد كل اللغات الصالحة للتعامل معه .. هكذا

تصورت .

فاتحت هنداً فى الزواج دون موافقة أسرتها ، نحن عقدنا القران منذ عامين ، ومازلنا تحت الاحتلال . والدتك تحتل كل شىء .. لابد من الهروب اللائق بنا ، وهو بعض حقنا .. الإجابة تائهة مثل نظراتها .

- موافقة .. لكن ماما . ربما تسقط .. نعم . لابد أن نتزوج .. لكن ماما .. انا خائفة جدا عليها.

مضى الوقت الطويل ونحن فى الشوارع وفى الضياع .. اختفت هند فى الفراغ والضباب . عدت ألح . أخيرا وقفت وهى ترتعد من هول ما أفكر فيه. قلت لها

دبرت الأمر .. خانتنى النواحى المالية . سندخل فى بيتك الذى لا يعرفونه .. سندخل على العفش العزابى .. أصرت هند على شرط واحد هو أن أبلغهم بزواجنا قبل أن تأتى معى . وافقت . اتصلت بزوج أمها فى الورشة . قلت بشكل تليغرافى :

- سافرت أنا وهند .. سنتزوج الليلة بالاسكندرية . ألف مبروك

قبل أن يفتح فمه بكلمة ، أغلقت السماعة.

معى مشت هند تقدم رجلا وتؤخر رجلا ..حاولت تجهيزها نفسيا .. حدثتها عن قرارنا الجرىء وبدء حياتنا المشتركة التى تمنيناها منذ سنوات .. كان لابد أن نقدم على هذه الخطوة ، لا أحد يهتم بك أو بى . أمرنا لا يعنى أحداً .. سنظل هكذا فى العراء والعمر ينقضى فى انتظار مالا يجيىء .. فلسطين تنتظر أيضا أملها الساكن فى قلوبنا ونحن جميعا ننتظر .. العملاق الأعمى لا يرضى إلا إذا أكل اللحم .. لحم الأطفال ، وإذا أكل الأطفال يطلب طبعا ماء النهر ، والنهر يجرى فى الأرض . والعملاق حلم بأنه لن يبصر إلا إذا امتلك الأرض .

اشتريت الطعام والشراب والفاكهة والعطر والملابس الداخلية المؤقتة لى ولها .. ولم تكن لنا حاجة إليها ، فقد لبسنا الملابس الكثيرة والثقيلة أياما طويلة حتى كتمت أنفاسنا .

بتردد بالغ صعدت السلالم شاردة ومرعوبة .. أعماقها ترفض وأنا أواصل الحديث التبشيرى عن الأيام المقبلة .. عن الثمرة التى آن أن نقطفها. عن الخلاص والحرية .

وضعت الطعام وأطلقت الموسيقى الهامسة كان فيما أظن شريطا يتضمن بعض المقطوعات لشتراوس وموزارت .. أضأت النور الخافت وارتديت بيجامة حريرية وطلبت منها أن تغير ملابسها فأبت .. عدت أحاول تذكيرها بما مضى من العذاب والصبر والأوقات المرة وأملنا فى أيام مختلفة .. أصرت ألا تخلع قطعة ، وألا تأكل لقمة وألا تتزوج .. شربت العصير فقط مضغت بدون نفس نصف تفاحة ، لم تحاول أن تقتفى آثر حواء .

جلست فى الركن ترقب كل حركة . شاحبة اللون .. زائغة العينين كقطة تتأهب للفرار .. أصابنى الاضطراب ، سألتها عن سر موقفها غير المفهوم ، قالت

– لن ندخل ، نحن نهددهم فقط .

– نهددهم " هل هى تمثيلية ؟" وبعد أن نهددهم ؟

تنهدت وهبطت إلى الأرض ، ماذا أفعل ؟ ما الغرض إذن من كل هذه المغامرة ؟ الساعة الآن العاشرة مساء .. هل سنظل هكذا بلا أى معنى ولا دور ولا فعل ولا حتى نستطيع لعب الورق أو الشطرنج .

دقائق مرت بعد العاشرة وأنا مغمور بالتفكير فى موضوع التمثيلية التى تحدثت عنها هند وتذكرت تهديد عبدالناصر بالهجوم على اسرائيل ، دون أن يفكر جديا فى الهجوم .. هل مجرد التهديد بالقوة يمنع الحرب التى كانت تنوى شنها على سوريا ؟

فجأة انفتح باب الشقة بضربة قوية ساحقة حطمت الشراعة الزجاجية بعد اصطدامه العنيف بالحائط .. اندفع إلى حجرة النوم التى نجلس فيها مكبلين بالمخاوف والحيرة نحو ستة رجال ، أربعة لا أعرفهم أمسكوا بى ، وظهر من خلفهم رجب زوج والدة هند الميكانيكى .. مستحيى .. كان معهم جابر .. رجلى ومساعدى الأول .. تمسك رجب بهند وسحبها وسألها وهو يميل على أذنها

هل لمسك ؟

همست : لا

– قولى

ردت بحدة : قلت لك .. لا

حاولت أن أتخلص من الرجال الضخام الذين اعتصروا ذراعى واوشكوا

على خلعهما فلم أستطع حتى التقط أنفاسى . اقترب منى رجب بوجهه الكالح الملطخ بالشحم تسبقه رائحة البنزين والسولار . ويبدو أنه لم يجد ما يقوله ، لكنه نظر إلى بازدراء وغضب .. هب واحد من الرجال الاربعة وهو يرفع يده إلى أعلى إشارة إلى أنه مهيمن على الموقف.

سحب رجب نظراته منى ، وقال لهم

- بنا يا رجالة ..

حمدت الله أن سكان الشقة المقابلة لم يكونوا بها منذ يومين .. كانت خطتى قد اعتمدت على عدم وجودهم خاصة أن السيدة تتمتع بفضول خرافى يدفعها لمحاولة معرفة مجرد فتح باب شقتى أو خروجى أو محتويات الكيس الذى بيدى .

جلست فى مكانى مبتلا وحائرا .. ما هذا الذى حدث ؟ كيف عرفوا مكان الشقة ؟ ما علاقة جابر بهم ؟ من هؤلاء الرجال ؟ كيف التقوا به ولماذا هو بالذات ؟ .. حالة ذهول كاملة .

جلست على الأرض خائرا وممددا . لم أستطع أن أنهض لأغلق الباب . لا أملك أى قدرة إلا على الذهول .. الأوراق ممزقة .. الضبب عاد مع الجراد . سكت شتراوس وموزارت رعباً .

ما الذى يجرى ؟ .. من أنا ؟ فى أى طريق أسير ؟

كل الإجابات عمياء والأسئلة وحدها المبصرة . ما الفرق بين حالتى والبلاد؟!

بعد نحو نصف ساعة وأنا على حالى المبعثر ، وصل جابر .. الرجل الأثير لدى . قال :

– سامحنى ، لم أكن أعرف أى شىء عنك أو عنهم .. وصل عم رجب وحده إلى الاستديو فوجدنى .

سأل عن بيتك لأنه يحتاجك فى أمر هام .. قال : والده نقل إلى المستشفى فى حالة خطرة . اتصلوا بنا وليس لديه تليفون . ركبت معه . فوجئت بالسيارة نصف النقل تتبعه وبها هؤلاء الرجال ثم تقف وراءنا تحت البيت ..

أنت إذن يا جابر الوحيد من كل البشر من عاونهم .. صحيح كنت نريد أن تخدم لكن هذا ما كان .. تركته يعتذر ساعة ويقبل رأسى ثم غادر ، وأنا مكانى لم أبرحه

كم أنا هش ' .. كم أنا هش '

لم تذكر أن جابر قال لك '

كان من حقك أن تبلغ الشرطة ، وتحرر لهم محضرا بالعدوان عليك وزوجتك ، خاصة أنك كاتب كتابك .

بقيت حتى الفجر تلوم نفسك ، مرة لأنك أقدمت على ما فعلت ومرة لأنك لم تبلغ الشرطة ، ولكنك رفضت بسرعة فكرة الشرطة قائلاً

هل كان عليّ أن أتزوج بالبوليس ، هل كان عليّ أن أسترد زوجتي بالقوة كما كان عبد الحكيم عامر يود استرداد سوريا بالقوة العسكرية ورفض عبدالناصر ذلك ، حتى لا تكون حرباً أهلية ووصمة تاريخية فى صفحة العلاقة الناصعة ..

عادت الفكرة تلح عليك غيظ ورفضتها ، لكن لومك لنفسك لمحاولة حسم الموقف المعقد كانت بالغة السوء ، وكما قال لك جابر 'يضا ، لم تكن معدة بشكل جيد ، حتى هند لم تكن مهيأة من الأعمق بدليل أنها خرجت مع القوات الخاصة دون كلمة ، وكأنها كانت تنتظرهم .

لماذا لم تشكك فى أن تكون هند قد سربت إليهم أى خبر؟ .. ها أنت على قارعة الحيرة والفشل والعجز تجلس القرفصاء دون أن تحسم شيئاً . الضبب يملأ المكان ، بالضبط مثل أرض المعركة في واترلو .. فى عينيك نفس نظرات نابليون عام ١٨١٥ .. الأسى العميق يتجول على أنقاض الهزيمة ، وكانت أعماقك بالضبط كأعماق نابليون الذى تعود أن ينتصر وكذلك عبدالناصر ، فإذا هو محاصر بالأعداء والجليد والضباب وأقدامه ورجاله تهبط فى أغوار الوحل ولا يملك القدرة على الخروج منه ..

كنت على ثقة أنهم لن يستطيعوا بلوغ مخبئك ولن يعثروا فى الاستديو على من يدلهم ، فمن يعلم لن يكون هناك بالليل ، ويتأخر جابر بالصدفة لبعض العمل فيلتقوه ، ولم يكن غيره فهو الوحيد الموجود ، وهو الوحيد الذى يعلم وهو الوحيد الذى يخشى عليك أن يلمست جناح بعوضة ، فإذا به يحمل الرجال إليك ليقتحموا بكل شراسة عرينك يوم زفافك السرى الذى لم يعلم به مخلوق حتى من تقدمهم إليك .

نجاة يونس

شغلتنى الرغبة فى معرفة شعورها .. حاولت أن أسبق المعرفة بالتصور .. هل هى غاضبة منى أو مشفقة على ، أو مقدرة لما فعلت ؟ هل ترى فيه خطوة مستحقة أم طيش وحماقة أو هما معا ، فربما يكون لك حق لكن سبيلك إليه كان هش .

هذا عن رأيها فما الشعور ؟ هل تأثر الحب ؟ هل تخلخل بناء رفعناه سنوات ؟ وهل ذبلت وردة العشق ؟ هل قل الماء فى النبع ؟ لابد أن أتشمم الأخبار .. وكيف ألتقط أى خبر ، وقد انقطعت عن العمل فى أجازة ؟ .. وعجزت تماما عن الوصول بنفسى لأى معلومة .. كلفت زميلة لا تربطها بها صداقة كى تسأل عنها ، ولو بحجة إعادة كتاب إليها ، فلم تحصل على إجابة وأحاطوها بالأسئلة ولم يكن مفر من ذهابى إلى عم رجب زوج أمها الذى استقبلنى بشىء من الحياد الذى يخفى عطفاً .

- أين هند ؟

سافرت لتقيم فى القرية

فكرت أن أذهب إليها فى القرية التابعة للمنصورة ، لكن كيف أسأل عنها وكيف ألقاها؟ أسرعت بكتابة خطاب باسم هدى زميلتها تقول لها فيه، «ساكون بالمنصورة يوم كذا «بعد أسبوع» أتمنى لقاءك لأمر هام ومصيرى خاص بالعمل .. سأنتظرك فى الثانية عشرة بكازينو الشجرة لمجاور

لكوبرى طلخا على النيل» .

فى الساعة الثانية عشرة من اليوم المحدد كنت أقف بالقرب من الكازينو أتأمل الداخلين .. أخيرا لمحتها وحيدة تأتى .. أسرعت إليها .. لم تدهش .. قالت أعرف أنك صاحب الرسالة .

- وحشتينى،

تنهدت وتحولت ببصرها إلى النيل .. أمسكت يدها فتركتها لى وعادت تنظر إلى النيل ، كم شرب هذا النيل من نظرات المعذبين !

قلت لها : لا داعى للحديث عما فات .. المهم أن تخرجى من هذا السجن .. ارجعى إلى عملك وإلى .. ارجعى إلىّ فإن المعانى فقدت الكلمت ، والأشجر محرومة من العصافير .. إرجعى إلىّ يا هند فإن الشفاه جفت والقلوب تصحرت لندرة البسمت . والورود هجرتها العطور .

هزت رأسها فى أسى .. كانت كلماتى يعلوها الصدأ .. كمن يحاول إعادة الذاكرة لمن فقدها كنت . واصلت : تصورى أنى لم أعد أستطيع القراءة .. الكتب لا تنطق ولا تجذب ولا تبوح .. الأفكار قعيدة والإلهام معطل والخيال غائب ، وأغلب الرؤى زاحفة .. إرجعى إلى ، فبدونك القاهرة مكان سقيم والأصدقاء بلا حرارة ، والعمل طعمه مر وأفكر إذا لم تعودى أن أنهى كل علاقتى بالقاهرة وأعود إلى بنها ويسدل الستار على كل ما جرى فيها وانزرع طوال سبع سنوات.

أخيراً تركت عيناها النهر وحدقت فىَّ طويلا ثم تسرب إلى ملامحها شبح ابتسامة .

قالت : من قلبك؟

قلت : من قلبي وعقلي .. لابد من تحديد سكة

قالت فيما يشبه اليأس : السكك كثيرة

قلت : خطأ أن تكون حياتنا معلقة بسكك كثيرة .. لابد أن نختار

تنهدت وهزت رأسها .

– لازم يا هند تحددي الطريق

– حدد وأنا معك

– لست معي .. أنت مع أمك.

كشرت : أرجوك

حاولت تخفيض نبرتي

– يا هند .. استعيدي شخصيتك القوية التي جذبتني إليك . لماذا تحولت هكذا ؟ .. لماذا تسربت الإرادة من يديك؟

– الظروف

– لا أعترف بها .

– بماذا تعترف إذن ؟

– بالهدف .. بالأمل .

ابتسمت في شبه سخرية .. تابعت :

– الحياة كلها تعيش بالأمل .. لا خطوة واحدة يحرزها الإنسان بدونه ، ولابد للأمل من إرادة

تحولت إليّ وحدقت في وجهي ، وقالت بحنان

– يا فؤاد أنا أريد مثلك أن نخلص .. لكن الظروف

– لا أحب هذه الكلمة .. أرى أن الإرادة أقوى .. خاصة إذا توفر الحب

ابتسمت وقالت الحب..

قلت بتأكيد الحب يا هند .. أرجوك تعالى نروى شجرته ثانية ونتحد ونتواصل .

بعد أسبوعين رجعت إلى العمل ، والتقينا عدة مرات على مدى شهر حتى أبلغتنى رسالة والدتها بدعوتى على العشاء .. كنا فى آخر مارس ١٩٧٢ ، أدركت أنها تدعونى لعودة الود والقيام بمهمتى فى رعاية أولادها المقبلين على الامتحانات .

بذلت الجهد الأقصى مع الأولاد لعل الأم ترضى وتهتم بقضيتى مثل جهود العرب التى تبذلها بسخاء لخدمة الانجليز والأمريكان من أجل عودة المسجد الاقصى وفلسطين الغالية . لكن هيهات .. القوة تغرى بالعبث بمصائر الآخرين .. الأمل رغم ذلك ينتعش بوعود حماتى الجميلة غليظة اللحم والقلب . بعد الامتحانات لابد أن تكونا فى بيت الزوجية إن شاء الله.

تمر الأيام غير عابئة بى والامتحانات تنتهى والنتائج تتوالى بالنجاح .. الكل لا ينكر فضل من أخذ بأيديهم وسهر الليل يشرح ويفسر ويعيد ويزيد ويثقب الرؤوس ليغرس فيها المعلومات .

أخيرا اكتمل الأثاث عند النجار ، ولم يبق غير دهان الصالون .. جلست وكتبت قائمة المدعوين من أهلى وأهلها ، وطبعت الكروت الفخمة وحجزت قاعة فوق مركب حالم ومتأهب لإسعادنا .. راجعنا كل شىء يوم الأحد السابق على ليلة الدخلة يوم الخميس .

قلت لحماتى أظن كل شىء تمام.

قالت لم يبق غير خمسين جنيها للنجار.

قلت بهدوء شديد : ادفعيها له

رفضت . أحسبها تداعبني ، أكدت عليها . أعلنت بوضوح إنها لن تدفعها ، ولن تنقل الأثاث إلى شقتي إلا بعد سدادها.

قلت : إنني أفلست تماما.

قالت: لا دخل لي .. اقترضها من أي شخص.

أحاول معها دون أن تتحرك قيد أنمله .. تغيرت كيمياء جسدي ودق قلبي بعنف .. صعدت النار إلى رأسي .. توترت أعصابي .. دهشت لحالتي . لم أكن هكذا أبدا .. لم تمر بي مثل هذه الحالة . أنا لا أثور في العادة إما أقبل أو لا أقبل .. ولكن لا تتملكني هذه الحالة التي تشبه البركان وتدفعني لأن أحاول – كما أنا الآن – أن أنقض على خصمي .

حالتي تسوء والسيدة المليئة تستفزني وتتحدث بلا مبالاة .. ابنتها تنظر إليها في استعطاف دون أن تنطق كلمة .. نهضت فجأة . كدت أقذفها بكوب الشاي الساخن . لم أستطع . أسرعت إلى الباب . ركضت هند ورائي ونادتني . لحقت ذراعي . أفلته من يدها وأخذت أجري . كنت مختنقا . ضلوعي تكاد تتحطم . رأسي أوشك على الانفجار . حالة غريبة تلبستني . أجري .. الساعة الواحدة بعد منتصف ليل الأحد .. لم أتوقف إلا عند الجامعة . اكتشفت أني ألتقط أنفاسي بصعوبة ، وأني جريت كثيرا .

مشيت بحماس حتى ميدان الجيزة ، اقتحمتني فكرة أن أحصل على الجنيهات القليلة من أي صديق .. مسألة يسيرة ، لكنني رفضت كل الأفكار المماثلة وأعلنت بل أقسمت أني لن أدفع مليماً ، مهما جرى .. عدت أجري .. كان لابد أن أجري حتى لا أقترف ما أندم عليه .. الغضب كان شاملا

وعميقا . جبل ضخم لعله تراكم على مدى السنين وظهر الليلة .. ما الذى يحدث؟

لم أكن أفكر وأنا أجرى .. لكنى كنت أتساءل :

– ما هذه الزيجة وما هذه الأسرة ، وما هذا الذى يحدث؟

ولماذا لا يدفعون حتى هذا المبلغ الهزيل ؟ لعل الأم لا تريد من قلبها زواج ابنتها . تريدها معينة لها فى تربية أخوتها .

انتقلت إلى نوع آخر من الأسئلة.

– هل طبيعى هذا الزواج؟ وهل سيتحقق الاستقرار الذى أبحث عنه ؟

وكيف ستكون علاقة الأم بابنتها ؟ .. هل ستكون علاقة أم لها حياتها بابنة لها حياة جديدة ؟ أم أنها ستكون علاقة أم تعيش بالكامل مع ابنتها ، تشاركها كل أفكارها وتواصل فرض أوامرها .. نأكل كما تشاء ونفكر كما تفكر ونلبس ما تريد ونخرج وندخل حسب رغبتها .. لا .. لا .. لا.

عندما بلغت الشقة كنت قد عزمت ألا أتزوج مهما حدث .. قرار من القرارات المفاجئة القوية والعجيبة .. هنأت نفسى عليه طويلا ، وإن كنت قد علمت أن العناية الإلهية تدخلت تلبية لشكوى مقدمة ضدى من رجل مهم .. فى شكل أدعية متصلة ، تعقبها صلوات .. أدعية وصلوات .. ما الذى يجرى معى وما الذى يجرى على الأرض ، وما علاقة السماء بالأرض ؟ هل هى إلى هذه الدرجة حميمة تنسجها جنوده بالصبر والأمل تحت عيونه .. سبحانك ربى إنى كنت من الظالمين ، فنجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين .

علمت بعد ذلك أن أبى – كما قالت أمى – كان يصلى طوال هذا الأسبوع بشكل متواصل ويدعو ألا يكون لى معها نصيب .. كنت قد قلت لهم

فى زيارتى الخميس الماضى أنى سأتزوج يوم الخميس القادم والحفل سيكون بمركب قيس وليلى أمام حديقة الأندلس . قالت أمى

- ظل أبوك من ساعتها يصلى حتى اتصلت مساء يوم الاثنين وقلت :

- لن يكون هناك فرح .. لن أتزوج «هند» .

دعانى أحمد المصرى بعد شهر ليسألنى بعد أن شكت له جنونى وعزمى على تخريب بيت تأسس بالحب والصبر .

- لماذا لا تود أن تكمل مع هند ؟

قلت : أسباب كثيرة

سألنى : لا أمل ؟

قلت : انتهت تماما كل الآمال .

قال : هل تحب أن تجلس معها ؟

- هل ثمة داع ؟

- أتصور هذا

- موافق

- إذن السبت القادم الساعة السابعة .

- مساءً ؟

- صباحا .

فى الموعد حضرنا . جلس المصرى على رأس ترابيزة الاجتماعات فى مكتبه . أنا إلى اليمين وهى إلى اليسار .. قال لها :

- قبل أن ندخل فى التفاصيل أسأل سؤالاً .. لو ذللنا كل العقبات .. هل لديك استعداد لإكمال الطريق معه ؟

قالت على الفور – اسأله هو

استدار نحوى وسألنى :

– رأيك

باندفاع قلت : لا

التفت إليها وسألها:

– ما رأيك ؟

وقفت وقالت له : عن إذنك

هكذا انتهى ربما أسرع اجتماع فى الدنيا.

خرجت من مكتب المأذون . دخلت مكتب شركة مصر للطيران وحجزت تذكرة إلى طرابلس .. كنت أود السفر إلى أوروبا . فى جولة أزور خلالها إيطاليا وفرنسا وسويسرا وهولندا وغيرها .. كنت مفلسا تقريبا ، فضلا عن أن المسموح للخروج به من العملات الأجنبية كان ضئيلاً للغاية . واقترح على البعض السفر إلى ليبيا والعمل بها عدة أشهر ثم السفر منها إلى أوروبا .

نمت نوما عميقا.. قبل الفجر حلمت أنى أمشى حافيا فى صحراء والرجل العظيم الذى رحل يكاد يسبقنى بخطواته الواسعة . وكلانا فى ملابس بيضاء تشبه أردية الإحرام .. معنا عنزتان بيضاوان على بطنيهما بقع سوداء . مشينا كثيرا تحت شمس ساطعة وقاسية نبحث عن الماء لنا وللعنزتين .. الآبار التى مررنا بها كانت مطمورة ، نشعر بالجفاف فى حلقينا ولا نملك القدرة على الكلام . توجهنا صوب الجبل . كانت على سفوحه بعض الأشجار . لابد هناك بئر .. عندما وصلنا إلى السفوح

المخضره استقبلنا الظل والتفت حولنا النسمات الطرية ترطب وجوهنا المشققة .

كانت هناك آثار نداوة على الأرض .. مضينا نبحث عن مصدر الماء حتى عثرنا على خيط رفيع من الماء . هجمنا عليه . لكنه لم يرو غلتنا ، فأسرعنا عقبه حتى دخل بنا إلى كهف .. رفضت العنزتان الدخول ورفضت . دخل الرجل الطويل الأسمر ، وبقيت أمام الكهف أشرب من السرسوب الرفيع .. لم يخرج الرجل حتى غربت الشمس . أسرعت أبحث عنه ، لم أجد له أثراً .. تملكني الحزن وانقبض قلبي ، وقلت حال الدنيا .

خرجت فلم أجد العنزتين . بحثت عنهما بلا جدوى ، ولما رفعت رأسي إلى السماء وأوشك الدمع أن ينبثق من عيوني رن بقوة جرس المنبه فانتبهت . كان حلقي كالحطبة . استدرجتني نفسي لأفكر في كتاب الإنسان الذى تتوالي عليه في كل يوم صور وأشكال وكلمات ورموز وبشر وحوادث ومفاجآت وحيوات وعبر .. مواقف بلا حصر كلها تحاول أن تشكل ملامح أروحه المخبوءة ومصيره المجهول .. ولا يزال السؤال التاريخي قائما دون إجابة : هل تملك مصيرك ؟

تم الجزء الأول

من سيرة الروائية

المحتويات

الهلال

مصطفى نبيل



رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
مجدي الدقاق



فؤاد قنديل

- مواليد القاهرة فى الخامس من أكتوبر ١٩٤٤ لأسرة من بنها - محافظة القليوبية.
- حصل على ليسانس الفلسفة وعلم النفس عام ١٩٦٩ من جامعة القاهرة.
- عمل باستديو مصر منذ عام ١٩٦٢ وحتى ١٩٧٧ ، ثم الثقافة الجماهيرية حتى تقاعده عام ٢٠٠٤.
- نشر قصصه ومقالاته الأدبية منذ منتصف الستينيات فى الصحف المصرية والعربية.
- من رواياته : السقف ، الناب الأزرق ، عصر واوا ، بذور الغواية ، روح محبات ، حكمة العائلة المجنونة ، قبلة الحياة.
- من مجموعاته القصصية : العجز ، عسل الشمس ، شدو البلابل والكبرياء ، الغندورة ، زهرة البستان.
- من دراساته : نجيب محفوظ كاتب العربية الأول ، محمد مندور شيخ النقاد ، إحسان عبدالقدوس عاشق الحرية ، أدب الرحلة فى التراث العربى ، فن كتابة القصة ، صناعة التقدم فى مصر ، ثقافة المصريين.
- أصدر العديد من الروايات والقصص للأطفال.
- حاز الكثير من الجوائز .. آخرها جائزة الدولة للتفوق فى الأدب ٢٠٠٤.

هذه الرواية

□ «المفتون» هو الجزء الأول من سيرة روائية من المزمع أن تقع فى عدة أجزاء، وفيه يتناول الروائى الكبير فؤاد قنديل مرحلة تأسيسه الأدبى والوجدانى والوطنى منذ عام ١٩٥٤ مع خيطة الوعى التى أفضت إلى المراهقة الفكرية والعاطفية بالتوازى مع مراهقة سياسية عاشتها مصر وحتى عام ١٩٧٢ .. ما يقرب من عشرين عاما تقلب فيها صباه وشبابه، كما تقلبت روحه وأمانيه على صدمات ملتهبة واكتشافات عذبة.

فى هذا النص الفاتن يسيل الكاتب عشقا للحياة، ويسرد علينا بلغته الشاعرية بعض تفاصيل هذه المرحلة الساخنة المحتشدة بالحب والجنس والحرب والنجاحات والإخفاقات.

إن طزاجة التجربة وتدفق العبارة النابضة بوهج المعايشة المباشرة، وغرابة الأحداث حالت دون أن يلجأ الكاتب إلى الخيال، كما عودنا، لأنه ينقل لنا بدقة وقائع من حياة حقيقية أخصب من الخيال .

ومما يلفت النظر تلك الجسارة غير المسبوقة فى الاعتراف بالأخطاء والنقائص التى اعتاد الجميع فى سيرهم تجاهلها، وقد أفاض الكاتب فيها بصدق فريد ، سوف يدفع بالنص إلى صدارة السير الروائية الممتعة.

أحدث إصـــــدارات روايات الهـــلال

العدد	اسم الكتاب	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٧٠٠	جنة مجنون	أسامة أنور عكاشة	ابريل٢٠٠٧	٥,٠٠
٧٠١	ن	سحر الموجي	مايو ٢٠٠٧	٨,٠٠
٧٠٢	بذور الشيطان	لينا كيلانى	يونيه ٢٠٠٧	٥,٠٠
٧٠٣	الفراق	أحمد شرف	يوليو ٢٠٠٧	١٠,٠٠
٧٠٤	ثقوب فى جدار الزمن	عواطف أحمد البتانونى	أغسطس٢٠٠٧	١٠,٠٠
٧٠٥	قبل آدم	جاك لندن	سبتمبر ٢٠٠٧	٥,٠٠
٧٠٦	حرمتان ومحرم	صبحى فحماوى	أكتوبر ٢٠٠٧	٦,٠٠
٧٠٧	رجل وأربع نساء جـ١	ابراهيم يسرى	نوفمبر ٢٠٠٧	٩,٠٠
٧٠٨	رجل وأربع نساء جـ٢	ابراهيم يسرى	ديسمبر ٢٠٠٧	١٠,٠٠
٧٠٩	مسألة وقت	منتصر القفاش	يناير ٢٠٠٨	٥,٠٠
٧١٠	لعبة الحب	مصطفى بيومى	فبراير ٢٠٠٨	٥,٠٠
٧١١	العلم	فتحى إمبابى	مارس ٢٠٠٨	٩,٠٠

بطاقة فهرسة
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
قنديل ، فؤاد
المفتون، فؤاد قنديل
ط ١-١٧٤ص، ٢١سم (روايات الهلال)
تدمك ١ - ١٢٩٨ - ٠٧ - ٩٧٧
١ - القصص العربية
رقم إيداع ٨٢٨٦ - ٢٠٠٨

روايات الهلال

الأفندي



للروائى

محمد ناجى

تصدر: ١٥ مايو ٢٠٠٨



اشهر الحوادث والقضايا









طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع: ٨، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع: ١٠، ١٦ ش كامل صدقي الفجالة - ٤ شارع الاسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة - القاهرة: ٦٨٢٢٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧، فاكس: ٢٥٩٦٦٥٠ - ٦٨٢٧٠٠٢ / ٤٠٢ ج.م.ع ٨ش بدوي محرم بك - الاسكندرية.